محمد الطاهر فضلاء

الطيب العقبي

رائد لحركة الإصلاح الديني في الجزائر





محمد الطاهر فضلاء

الطيب العقبي

رائد الحركة الإصلاح الديني في الجزائر

هذه الموسوعة التاريخية للشباب تهدف الى تعميم الثقافة التاريخية الوطنية في أوساط الشباب الذي يبدو اليوم أكثر تعطشا للمعرفة عامة وللتاريخ خاصة .

وإن توافق إصدار هذه الموسوعة مع احتفالات الذكرى الثلاثين للثورة التحريرية الكبرى ، لمن شأنه أن يبعث فينا روح التطلع الى مواصلة هذه المسيرة من أجل تحقيق أهداف الثورة كاملة ولأجل بلوغ الغاية القصوى المتمثلة في الثورة الثقافية الشاملة .

د . محمد الطاهر العدواني

صدر هذا الكتاب عن وزارة الثقافة بمناسبة
الجزائر عاصمة الثقافة العربية 2007
يهدى ويوضع في المكتبات ولا يباع

بسم الله الرحمن الرحيم

«مِنَ المُؤْمنينَ رِجالٌ صَدَقُوا مَا عاهَدوا اللهَ عليْه ، فَمِنهُم مَنْ قَضَى نَحبَه ، ومِنهم مَنْ يَنْتَظِر ومَا بَدَّلوا تَبْديلا ، لِيَجْزيَ اللهُ الصَّادقينَ بِصِدْقِهِمْ ويُعذِّبَ المنافقينَ إنْ شاءَ أوْ يَتُوبَ عليْهِمْ ، إنَّ اللهَ كانَ غَفوراً رَحيما» (سورة الأحزاب)

مقدمة

في آخر صباي وأول شبابي ـ جلست في صفوف المستفيدين من دروس ومحاضرات الشيخ الطيب العقبي في نادي الترقي ، كما جلست في صفوف التلاميذ من طلبة الشيخ عبد الحميد بن باديس في الجامع الأخضر.

ورحم الله والدي الشيخ محمد السعيد البهلولي فهو الذي أعدني ـ وإخوتي ـ إعدادا مبكرا للإستفادة من مثل هذه الصفوف في مجالس العلم التي يتصدرها هؤلاء العظماء من كبار علمائنا الذين كانوا يحرصون الحرص كله على تعبئة نفوس تلامذتهم وطلابهم بحب العلم قبل طلبه ، وبتقديس العمل به قبل تحصيل مادته وقواعده .

وإذا كان هناك بقية من فضل تكويني وتوجيهي التكوين العلمي والتوجيه العملي ـ بعد والدي ـ فهو هذا الفضل العظيم الذي يطوقني ويغمرني من هؤلاء العلماء العاملين المجاهدين :

عبد الحميد بن باديس ، الطيب العقبي ، محمد البشير الإبراهيمي ، العربي التبسي ، الفضيل الورتلاني ، عيسى يحياوي الدراجي ، الهادي

الزروقي ، محمد العيد آل خليفة ، وغيرهم من السابقين واللاحقين من أعضاء جمعية العلماء الجزائريين ، فهم ـ بعد الله ـ أصحاب الفضل والمنة في صقل مواهبي ، وتركيز معارفي ، وتصحيح عقيدتي ، واعتزازي بلغتي ووطني ، فشكرا لله سعيهم وأثابهم بما يثيب به عباده الصالحين .

* * *

وأفضال الشيخ الطيب العقبي من أفضال الله علينا في هذا الوطن ، وذكره بمحامده ومناقبه من أوكد واجبات الوفاء له ، وقد اختلفنا معه في بعض الآراء التي رآها عندما كنا نتعاطف مع آراء غيره ونجد أنفسنا مرتبطين أشد الارتباط بعوامل الثقة في غيره ـ لكننا عندما وجدنا بعض «الشراسة» حول هذه الآراء ، وأيقنا أنها سوف تجرنا مع المتطرفين إلى الإجحاف واجتناب العدل ومظاهر الاحترام ـ لازمنا جانب الحيطة والحياد ، ووقفنا حيث دعانا واجب النزاهة والعدل من مثل قول إمام الشعر ورائد الشعراء ، حين استشرت الفتنة واحتدت ـ في هذين البيتين اللذين استنسخناهما عنه ، وقمنا بتوزيعهما على طاولات نادي الترقي وهما :

خصمان فيما يفيد الأمة اختصما
إياك أن تنقص الخصمين إياك ؟!
كلاهما في سبيل الله مجتهد
فلا تلعن لا هنا ولا ذاك ! !

وإذا كانت لغة السياسة في مثل هذه الخصومة ـ تأبى هذا الأسلوب في التعامل ، وإذا كانت سخائم الغيرة والحقد والحنق والطموح والغرور ـ تغطي مرآة العقل والضمير بضباب كثيف وتحول دون صاحبها والرؤية الصحيحة لكنه الأمور ... فإن لغة الخلق السمح والاعتصام

بسير النبيين والصّديقين ، هي التي أملت على شاعرنا العظيم هذين البيتين وأمرنا باستنساخ نسخ منها لتفريقها في نادي الترقي حيث يجلس كل الناس وليس لهم من الحديث إلا هذه الخصومة التي وقف على طرفيها رجلان من أهل العلم والعمل ، وهما معا يحملان حجتهما ، وكلاهما يتحرى الحق ويلتزم الصدق .. فما أجدر غيرهما بالاستمساك بما يوجبه عليه الخلق الكريم العظيم من مثل موقف شاعرنا العظيم ، ومن مثل موقف إمام الصالحين من سلفنا الصالح : «الحسن البصري» حين سئل عن الفتنة الكبرى فأجاب :

ـ تلك دماء طهر الله سيوفنا منها ، أفلا نطهّر ألسنتنا من الخوض فيها ؟!

* * *

ومن عجائب خلق الله في هذه الدنيا الدنية ـ أنهم يتبعون المعائب والمثالب يملأون بها صحائف أقلامهم وألسنتهم ، حتى إذا خطرت أمامهم المحامد والمكارم ، أمسكوا أقلامهم عن كتابتها ، وأخرسوا ألسنتهم عن ذكرها ، كأنّ بينهم وبين الخير جدار ذي القرنين (فما استطاعوا أن يظهروه ، وما استطاعوا له نقبا) فيا لله لأهل الخير بينهم ؟ وطوبى لهم بين يدي الله ، حين يأخذ الله لهم حقوقهم من ظالميهم وقاذفيهم ، ويومئذ يفرح المومنون بنصر الله ، فليحذر المخالفون عن أمر الله ، فهو يمهل عباده ـ رأفة بهم ـ ولا يهملهم ، فقد قال في محكم كتابه :

«ولا تحسبن الله غافلا عما يعمل الظالمون ، إنما يؤخرهم ليوم تشخصُ فيه الأبصار ، مهطعين مقنعي رؤوسهم ، لا يرتد اليهم طرفهم ، وأفئدتهم هواء» (48 ـ إبراهيم) .

وقد يكبو الجواد الأصيل في الميدان ، ويثير بكبوته تساؤلات وشكوك الناس ، ولكن الفرسان الأصلاء لا يصدرون حكمهم هكذا ارتجالا وتهورا قبل معرفة الأسباب والظروف والملابسات .

هذه حكمة الحكماء وطريقة الأخيار من الناس ، حين يعرض لهم من الأمور ما ليس من طبيعتها ومألوفاتها ، فالحكم عن الشيء فرع عن تصوره ، ولكن البحث عن الحقيقة ، وتحري الصدق ، وترسم الحق ، وطلب العدل ، كل هذا يعرض الباحث إلى معاناة مرهقة ينوء بثقلها كاهله وتقف دونها طاقته ، فيقع بين أمرين ، فهو إذا آثر السلامة في دينه وعرضه ترك البحث ولازم السكوت ، وإذا اختار طريق الاجتهاد في البحث تعرض للصواب وللخطأ فهو يخطىء أحيانا ويصيب أخرى ، ولا ينجيه في ذلك إلا الإخلاص في قصد الخير ، ما لم يكن في خطته تجريح للناس في ذممهم وقذفهم في أعراضهم .

والشيخ الطيب العقبي ـ عالم آثر العمل بعلمه في كل ميادين العمل بالعلم ، وهو إنسان يرتبط ببشريته في مادتها الترابية ، كما يلتزم بروحه في إشراقها السماوية ، ورجل كهذا أقرب إلى الخير وإلى الفطرة من الذي لا يلتزم العدل بين النجدين مخالفا بذلك فطرة الله التي فطر الناس عليها .

وعمل الشيخ العقبي بعلمه من الأعمال الخالصة لوجه الله ومن أجل نفع عباد الله في دينهم ودنياهم ، لم يخلط في ذلك شيئا من عرض الدنيا ، فهو حين عاد من المشرق إلى وطنه (1920) واستقر المقام به في بسكرة ـ ملأ حياته وحياة الناس بالمكارم والمحامد معلما مربيا ، وواعظا مرشدا ، وكاتبا مبدعا ، وصحفيا مقتدرا ، وشاعرا مفلقا ، وخطيبا مصقعا .. جمع كل هذا إلى ورعه ، وقناعته ، ونزاهته ،

وتقواه ، ومراقبة نفسه في عبادة الله مخلصا موحدا لا يشرك به شيئا .. مع شجاعته وجرأته في الحق ، لا يأبه بما يناله من سوء في سبيل عقيدته ومبادئه وطريق جهاده ، وهو مع هذا ذكي أريب ناصع الحجة يعرف صاحبه وخصمه ، فهو إذا صادق وفىّ ، وإذا خاصم عفّ وتنزه عن الدنايا وترفع عن المآثم ، فهو بالرغم من نصاعة حجته على خصومه ، لم يثبت عنه أبدا أنه تبذأ لسانه أو قلمه في مقارعتهم ومصاولتهم ، شأنه في ذلك شأن العلماء المسلمين الذين يترسمون خطو النبوة فيما يقولون ويفعلون .

تولى الشيخ الطيب العقبي إدارة جريدة «البصائر» لسان حال جمعية العلماء ، فظهرت فيها براعته الصّحفية وفهمه الدقيق لمهام جمعية العلماء في الأمة وملاءمته بين هذه المهام وما تتطلبه المهمة الصّحفية في العهد الجديد للأمة .

وبعثت إليه بمقالة نقدية في حركة الإصلاح وطبيعة المصلحين ، ثم دخلت إليه مسلما عليه في مكتبه بنادي الترقي فإذا به يتلقاني بترحيب وبثني على ما كتبته ، ثم قال : ولكني بالرغم من إعجابي بما كتبت ، قررت تأجيل مقالتك إلى حين تنضج فيه أفكارك وتستوي فيه معلوماتك .. ونصيحتي إليك أن تدوم على الكتابة وتستمرّ في عملية الإنتاج فسيأتي يوم يطلب إليك أن تكتب ، وتكون كتابتك حينئذ في المستوى المطلوب .

وتأجل فعلا مقالي إلى حين انتقال جريدة البصائر من العاصمة إلى قسنطينة ، ومن إدارة الشيخ العقبي إلى إدارة الشيخ مبارك الميلي ، فإذا بمقالتي تنشر كما هي وكما كتبت منذ سنوات ، ويعلم الله أني ما كنت راضيا عنها وعما ورد فيها من أفكار ، لأن الأسلوب تغير ، والأفكار تطورت ، لهذا ذهبت إليه في مكتبه بالنادي وقدمت إليه

اعتذاري عن المقال وأعلمته بأني لم أبعث به إلى الجريدة من جديد ، فمن أين لها به ، فقال : أنا سلمت إلى الإدارة الجديدة كل مواد وأدوات الجريدة ، ومقالتك منها صالحة للنشر جاهزة له ، فعلمت أن جدية الشيخ العقبي فوق ما يتوهمه الناس وأسمى مما يعيش فيه الناس .

ومضى حين من الدهر ، وتأتي الحرب العالمية الثانية وتنتهي ، ويموت «المهاتما غاندي» مقتولا فأرثيه بكلمة على أمواج الإذاعة آنذاك ، فيبعث إلي الشيخ العقبي وحين أحضر إليه يصافحني في حرارة ويقول لي : استمعت إلى كلمة تأبينك لغاندي فأعجبتني فابعثها إلي عاجلا لأنشرها في «الإصلاح» ، وقلت له مازحا : هل هذا داخل في معرض حديثك لي منذ سنوات بأنه سيأتي يوم يطلب مني فيه أن أكتب ؟ فقال نعم هو ذاك ، وبهذه المناسبة ، فإن «الجمعية الخيرية» ـ التي يرأسها ـ ستقيم حفلها السنوي ، فأرجو حضورك فيه وكتابتك عنه ، وسلمته كلمة تأبين غاندي فنشرها ومقالي عن حفلة الجمعية الخيرية فنشره في الصّفحة الأولى من الإصلاح .

واستمرت علاقتي بالشيخ الطيب العقبي ـ علاقة التلميذ بأستاذه ـ بعد ذلك ، وكان لا يألو في توجيهاته كلما استمع إلي في مختلف ما كنت أقدمه ضمن برامج الإذاعة من حصص أدبية وتمثيلية ، وما كنت أكتبه وأنشره في مجلة «هنا الجزائر» ، فذهبت إليه مرة زائرا كعادتي مستفيدا من آرائه وتوجيهاته ، وعندما دخلت من باب المكتب ومد يده لمصافحتي إذا به يقف متأثرا غاضبا وبيده مجلة الإذاعة ، وهو يشير بيده الأخرى إلى غلافها الأول ، ويعيد مستفهما كلمة : هنا الجزائر ؟ هنا الجزائر ؟ فنظرت إلى الغلاف ، فإذا بي أرى عليه وجه امرأة وصدرها سافرين سفورا متبرجا ، ففهمت قصده ، فقلت مازحا : نعم ، هنا الجزائر تحت الاستعمار ! !

فرمى بالمجلة جانبا وأقبل علي يقول : إنكم أولادنا ، وثقتنا في عقيدتكم الإسلامية وغيرتكم الوطنية لا يشوبها شك في نفوسنا ، ووجودكم في مؤسسة الإذاعة العربية اللغة يطمئننا عليكم وعليها ، فكونوا مع الله يكن الله معكم ، ووفقكم الله .

والذي يعرف الشيخ الطيب العقبي في الثلاثينات ثم يغيب عنه إلى الأربعينات والخمسينات ، فإنه سيجده هو في شكله وسمته وحديثه وتفكيره ، لم يتغير منه شيء فتلك ميزة هذا العالم المثالي من بين علمائنا الأبرار الأحرار ، وهو ما أردته وأردت توفيره بين أيدي القراء من شباب هذه الأمة ـ حين كتبت عن الشيخ العقبي وحاضرت عنه في عدة مناسبات ، وهو ما قصدته في هذا الكتاب من «موسوعة الشباب» التي تضطلع بها وزارة الثقافة مشكورة .

وما توفيقي إلا بالله ، عليه توكلت ، وإليه أنيب .

الشيخ الطيب العقبي

ترجمتـــه :

نثبت ترجمته كما كتبها هو بنفسه ، ونشرت في الجزء الأول من كتاب «شعراء الجزائر في العصر الحاضر» لمؤلفه الأديب الجزائري الكبير الأستاذ محمد الهادي السنوسي الزاهري ـ أنظر الكتاب ، ص ، 124 .

الترجمـة :

ولدت ببلدة سيدي عقبة (الجزائر) ليلة النصف من شهر شوال سنة 1307 حسب ما استفدته من مجموع القرائن الدالة على تعيين هذا العام ويحتمل أن تكون ولادتي بعد ذلك التاريخ بنحو العام لأني لم أجد قيدا صحيحا لسنة ولادتـي .

ووالدي هو محمد بن ابراهيم بن الحاج صالح والى هذا ينسب اليوم كل فرد منا وبه تعرف عائلتنا فيقال لكل منا (ابن الحاج صالح) وعائلتنا من أوسط سكان البلدة . فلا هي أعلاها ولا هي أدناها . وأصل أول من سكن بلدة سيدي عقبة من جدودنا من أولاد (عبد رحمان) بجبل (احمر خدو) بالجهة التي تسمى منه باسم (كباش) ويتصل نسبنا على التحقيق بالرجل الشهير عند أهل تلك الجهة المعروفة لديهم بالولاية والصلاح حتى أنهم يحجون قبره وقبته المقامة عليه ويقال عنه أنه شريف النسب أيضا والذي يلفظون اسمه هكذا (سيدي محمد بن عبد الله) بفتح ميم محمد وكسر عين عبد الله فنحن إذن عبدريون (بالراء) عبدليون (باللام) نسبة إلى عبد الرحمن وعبد الله . وجدّنا الأول المتنقل من تلك الجهة إلى سيدي عقبة يوم تأسيس البلد أو بعده : عقبي بسكناه بها ثم نحن من بعده إلى هذا اليوم عقبيون ....

أما والدتي فمن بلدة (ليانة) بالزاب الشرقي من عائلة (آل خليفة) الشهيرة بلقب (ابن خليفة)[1] .ودعنا من تعداد

---

(1) وهي أسرة شاعر الجزائر الكبير محمد العيد آل خليفة ، فأسرة الشاعر هم أخوال الشيخ الطيب العقبي .

الآباء والأجداد والمفاخرة بالالقاب والأنساب . لأن ذلك ليس بمذهب لي . فإني في جملة البشر أحسب ، وإلى جدنا الأكبر وأبينا آدم أنسب ، وإني في هذا المذهب أوافق صديقي معروف الرصافي حيث يقول :

قالوا ابن من أنت يا هذا ؟ فقلت لهم
إني امرؤ جـده الأعـلى أبـو البـشر
قالوا فهل نال مجداً ؟ قلت : واعجبي
أتسـألـوني بمجـد ليس في ثمـري

ولله در الحريري السابق في هذا الميدان بقوله :

ومـا الفخـر بالعظـم الرمـيم وإنمـا
فخـار الـذي يبقـى الفخـار بنفسه

وخير من هذا كله قول الله عز وجل «يا أيها الناس انا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا ان أكرمكم عند الله أتقاكم» وأرى من تمام الترجمة أن أقول لكم : ان مذهبي في الوطن هو مذهب القائل :

من كـان مثلي فـالـدنيـا لـه وطـن
وكـل قـوم غـدا فيهـم عشـائـره[1] .

---

(1) وقريب من هذا المعنى في بيتين نظمتهما في سنة 1920 أذكرهما هنا =

انتقالنا إلى الحجاز :

انتقلت عائلتنا مهاجرة من بلدة سيدي عقبة إلى الحجاز بقضها وقضيضها(1) أنثاها وذكرها . صغيرها وكبيرها . سنة 1313 هجرية قاصدة مكة المكرمة لحج الكعبة المشرفة في تلك السنة فكنت في أفرادها الصغار لم أبلغ من التمييز الصحيح ولولا رجوعي إلى هذه البلاد مؤخرا ما كنت لأعرف شيئا فيها .

استقرار عائلتنا بالمدينة :

سكنت عائلتنا أول سنة 1314 ـ بعد الحج ـ المدينة المنورة حيث كان استقرارها بها وبها قبر أبوي وعمي وعم والدي وأختي ، وجل من هاجر من أفراد عائلتنا كلهم دفنوا هنالكم (ببقيع الغرقد) رحمة الله عليهم . أما والدي فكانت وفاته ليلة الخامس من شهر شعبان 1320 ـ وأنا عند رأسه

= وان كان ملهي اليوم غير ملهي بالأمس ، ألزم وطني مهما استطعت ذلك ووجدت اليه سبيلا ، وهذان هما البيتان :

إذا ما صَحّ أن الترب أصلي ... وأن الناس من هذا التراب
فكل مطارح طرحتي أرضي ... وكل القاطنين من الصحاب

(1) يقال جاء القوم قضهم وبقضيضهم أي جميعهم .

أحسّ نبض آخر عرق كان يتحرك فوق صدغه وكان قبل موته بنحو السنة والنصف مات شقيقه الوحيد عمي أثناء وجود والدي بهذه الديار التي رجع اليها إذ ذاك متفقدا حال أملاكهم التي تركوها هنا وقد أتاح الله للأخوين الشقيقين : أبي وعمي أن يدفنا في قبر واحد ويضمهما معا ذلك الجدث كما خرجا من بطن أم واحدة ، وكان مأواهما في الثرى عند قبر الامام مالك (رضي الله عنه) وبازاء قبر سيدنا ابراهيم ابن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) .

كفالتي وتربيتي

وبعد وفاة والدي بقيت مع شقيقي وشقيقتي وأختي للأب تحت كفالة والدتي وقد (أدبني ربي فأحسن تأديبي) وتربيت في حجر أمي يتيما غريبا لا يحوطني ولا يكفلني غير امرأة ليست بعالمة ولا صاحبة إدراك ورأي سديد ، بل هي كنساء أهل هذه البلاد ولولا فضل الله علي وعنايته بي صغيرا يتيما لما كنت هديت سواء السبيل «فالحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله» .

تعلمي وقراءتي القرآن :

قرأت القرآن على أساتذة مصريين برواية (حفص)

ثم شرعت على عهد والدتي بقراءة العلم بالحرم النبوي لا يشغلني عنه شاغل ولا يصدني عنه شيء حيث كان أخي الأصغر مني سنا هو الذي تكلفه والدتي بقضاء ما يلزم من الضروريات المنزلية وقد أدركت سر الانقطاع لطلب العلم وفهمت جيدا قول الامام الشافعي : (لو كلفت بصلة ، ما تعلمت مسألة) بعد أن أصبحت أنا القائم بشؤوني والمتولي أمر عائلتي ونفسي ، أخذت إذ ذاك من العلم بقسط شعرت معه بواجباتي الدينية والدنيوية ، وما كدت أدرك معنى الحياة وأتناول الكتابة في الصحف السيارة وأنظم الشعر وأتمكن من فهم فن الأدب الذي كان سمير طبعي ، وصمير جمعي ـ حتى فاجأتنا حوادث الدهر ، ونوائب الحدثان ، وجلها كان على اثر وبسبب الحرب العالمية التي شتتت الشمل وفرقت الجمع . فسحقا لها سحقا ، وبعدا لما أبقته من آثارها السيئة بعدا

كيف أبعدت عن المدينة :

تناولت الكتابة في الصحف الشرقية قبل الحرب العمومية أمدا غير طويل فعدني بعض رجال تركيا الفتاة من جملة السياسيين ، وأخرجوني في جملة أنصار النهضة العربية معنا من المدينة المنورة على اثر قيام (الشريف الحسين بن علي)

في وجوههم بعد الحرب إلى المنفى في أرضهم (الروم ايلي) أولا (فالأناضول) ثانيا(1) وهناك بقيت أكثر من سنتين معنا في جملة الرفاق عن أرض الحجاز وكل بلاد العرب ثم انتهت الحرب الكبرى بعد الهدنة يوم 11 نوفمبر 1918 ميلادية ونحن إذ ذاك مع عائلتنا التي التحقت بنا بعد خراب المدينة في بلدة (ازمير) ومنها كان رجوعنا معشر أهالي المدينة المنورة إلى الحجاز ، وما وصلت أنا إلى مكة المكرمة حتى لقينا من لدن جلالة (الملك الحسين) كل ما هو أهله من الإكرام والإجلال وهناك عينت مديرا لجريدة (القبلة) و (المطبعة الأميرية) يجرى علي من سيل انعامه واكرامه ما لا أستطيع مجاراته عنه بطويل الشكر وعريضه .

رجوعي إلى بلاد الجزائر :

ولما وقع من الاعتداء على املاكنا التي لا تزال على ذمتنا ببلدة (سيدي عقبة) ولما كنت أتوقعه من عدم استتباب الأمن واستقرار الأمر في الحجاز للشريف الحسين . غادرت تلك البلاد المقدسة إلى هذه البلاد الجزائرية بنية قضاء مآربي

(1) كان نفيه من الحجاز إلى تركيا ـ من قبل الأتراك ، ليلة 23 محرم 1335 هـ كما أثبته هو نفسه في بقية هذه الترجمة

هنا وعمل ما يجب عمله في قضية أملاكنا مع المعتدي عليها ، ثم الرجوع إلى الحجاز إذا رجعت المياه إلى مجاريها . وها أنا ذا الآن أسكن مند ست سنوات بلدة «بسكرة» من يوم قدومي إلى هذه البلاد وهو يوم 4 مارس سنة 1920 ـ إلى هذا اليوم ، ومن حين قدومي إلى هذه الديار لم أشتغل بعمل عمومي ذي بال كما أني لم أتعاط الكتابة والنشر في الصحف لأني أعتبر نفسي منذ رجوعي من «الحجاز» وبعدما وقع من الحوادث المقلقة السالبة لكل أسباب الراحة (بل المعقدة للحياة) وبعدما مر على رأسي من الليالي المزعجات ـ قد خرجت عن الحياة السياسية بالكلية وبعدت عن العلم وأسبابه بعدما بين المشرق والمغرب ...(!؟)

ولكني مند أشهر أبديت بواسطة صحافتنا الجديدة بعض آراء وأفكار في مسائل تخص العلم والدين فلم يرق ذلك لبعض الجامدين وثارت ثائرة من لا يزالون يحبون الاصطياد في الماء العكر ... وقام دعاتهم في وجهي يصدون الناس عن سبيل الله ويبغونها عوجا . وإني لمواجه لكل صدماتهم ومجابهتهم وجها لوجه كيفما كانوا ما دمت أعتقد أني على الحق بالرغم عن تجردي من كل عدة يعدها الخصمان. وما أنا في محاربتهم ـ والحالة هذه ـ (إلا كساع إلى الهيجاء

بغير سلاح) وما أحادلهم إلا بالتي هي أحسن ما داموا عن الحق غير معرضين

أما المنافقون منهم والمارقون الذين يرتدون عن دينهم في كل يوم مرة أو مرتين فأولئك هم الذين أغلظ عليهم أحيانا وأعاملهم بما يستحقون

وما سلاحي الذي أبارزهم به إلا صبابة مما كان علق بالذهن وبقية في الوطاب من آثار التربية الإسلامية والعلم الصحيح ، وهم في كل محاولاتهم «يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم ويأبى الله الا أن يتم نوره ولو كره الكافرون» «وسيحكم الله بيني وبينهم وهو خير الحاكمين» .

هذه خلاصة إجمالية في ترجمة حياتي لعلها تفي بالمراد أيها الصديق ... أما تفصيل شأني وتعداد أصدقائي وذكر ما وقع لي وما شاهدته في سفري وإقامتي وكل تنقلاتي الخ ـ فهو مما يطول شرحه . ولعلي أخصه بسفر متى استجمعت حواسي ورجعت إلى المستقر الأخير..

مــدخــل

واقعة حال :

أسفي على الآداب والأخلاق	أسفي على الذوق السليم الراقي
أسفي على بعض الرفاق فإنهم	فقدوا سجية كاملي الأذواق
عهدي بهم والرفق من أخلاقهم	فإذا بهم خُلق بدون خلاق
لا يؤثرون رفيقهم ولو اقتضى	حال الرفاق الرفد بالارفاق
فتراهم يستأثرون وان عدوا	نهج الهدى ومكارم الأخلاق
حسبوا الزعامة في الظهور وما دروا	ان الظهور وسيلة الاحماق
ما ساد من لم يحتفظ لرفيقه	بحقوقه ، وبعهد ودّ باق
كلا ، ولا نال الزعامة غير من	ضحّى بصالح نفسه لرفاق

• • •

لعل هذه القطعة الشعرية التي نظمها أستاذنا الجليل الشيخ الطيب العقبي في واقعة حال ، ونشرت كما هي

بلا تعليق — في جريدة البصائر لسان حال جمعية العلماء — وسجل فيها هذه الانطباعات الوجدانية لنفسية الإنسان من حيث هو مخلوق مدني يألف الناس ويألفونه ، ويؤثر فيهم ويتأثر بهم في عملية الأخذ والعطاء والمد والجزر — لعل هذه القطعة تكون خير ما يدل على معدن الخير في أستاذنا ، إذا ما قيس الخير بمقياس النفع العام الذي أشار اليه شاعرنا العربي حين قال :

فلا نزلت علي ولا بأرضي   سحائب ليس تنتظم البلادا !

وكيف لا ، وأستاذنا الشيخ العقبي عليه رحمة الله — من العلماء الأفذاذ الذين رصدوا كل طاقاتهم ، وألزموها التزام منهج في الحياة لم يحيدوا عنه ولم يبغوا عنه حولا .. وسنرى فيما سنوفق إلى عرضه من بعض جوانب شخصيته العلمية والدينية والاجتماعية ، أي رجل هو من بين رجالاتنا الأحرار الذين أسهموا في بعث النهضة الوطنية منذ العشرينيات من هذا القرن العشرين .

ولكي نسير على سنن المنهج التدريجي — حتى لا أقول المنهج العلمي — لابد لنا من التعرض بدءا إلى الحالة الاجتماعية التي كان عليها المجتمع الجزائري آنذاك . ثم التعرض للحالة الشخصية لهؤلاء الرواد الأحرار الذين فتح الله بأيديهم مغاليق

الأبواب أمام مسيرة هذه النهضة ، ومنهم هذا العالم العامل والمصلح الكامل رائد الاصلاح والمصلحين بالجزائر الشيخ الطيب العقبي رحمه الله ورضي عنه في المجاهدين الخالدين .

بوادر نهضة الأمة :

وفي استعمالنا لكلمة الأمة — بيان على أنها كانت أمة بالمعنى الاصطلاحي للكلمة ، وبالمعنى الطبيعي لها تعبيرا بالفطرة من قوله تعالى :

«إن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاعبدون» (92 . الأنبياء) ولكن هذه الأمة التي جمعها الله في وطن له حدوده الطبيعية والجغرافية ، وجمعها الله في عقيدة انتظمت الكون ووحدت بين عناصره ، وجمعها الله في حيز من التاريخ البشري ، فكون منها قومية ظاهرة المعالم جلية الأصول والفروع ... هذه الأمة ابتليت بمحن الاحتلال والاستغلال والاستذلال والاستبداد ، فتحولت من الأمة الواحدة إلى أوزاع ومجموعات تمزقت وحدتها إلى كتل وإلى طبقات ، ومع ذلك فهي أحسن حظا وأوفر خيرا في مجموعها من «طبقة النخبة» التي احتكرت قيادتها في السياسة ، وفي الاقتصاد ، وفي الحياة الاجتماعية ، وفي غيرها ، ذلك أن الغالبية الغالبة من هذه الأمة هي عامة الشعب الكادح في

سبيل لقمة العيش ، وهي وحدها التي جمعتها مصائب الفقر والجهل والحرمان ـ وكذلك المصائب يجمعن المصابين ـ فكانت منه هذه الأمة الجزائرية المسلمة التي احاطت بها السياسة الاستعمارية وطوقتها بعدد عديد من القيود والأغلال لم تكن تعرف الطريق إلى التحرر منها . ولم تكن تملك الإمكانيات الذاتية للخروج من وضعها القاسي المهين . فكانت تتخبط في «جاهلية» دونها جاهلية العادات القبلية والوثنية من الأمم الغابرة ، حيث أصبح الدين فيها اسما بلا مسمى ، وطقوس كهنوتية ما أنزل الله بها من سلطان ، وأصبح العلم فيه أحاجي وأساطير وضعت بين أيدي جهلة تصدروا مجالس العلم بجهلهم فضلوا واضلوا .

ذلك هو حال الأمة المسلمة في الجزائر منذ بداية القرن العشرين : أمية ، ضربت أطنابها ففرضت جوا مظلما من الجهالة والخمول . وفقر مدقع . لا يتأتى معه التفكير الفطري فضلا عن التفكير العقلي ، وسياسة استثنائية ، تساس بها كل مجموعة بشرية ، كما تساس قطعان الأنعام في المراعي الجبالية القاحلة .

ودهمت كل محاولات «النجدة» أدراج الرياح ، لأنها لم تكن تهتم بالأمة اهتمامها بقشور ما كان يسمى بالإصلاحات

وتنظيم المجموعات المحلية للزج بها في معارك الانتخابات .. ولأنها أهملت جانب التوعية والتكوين في الأمة ، وتركت واجب «الإصلاح الديني» فيها . فانتكست هذه المحنة ثم انهزمت وبانهزامها كان يبدو للناظر الغير المتبصر في الموقف ـ أن القيد قد التفّ على عنق الزجاجة ، وأصبح من العسير بل من المستحيل ـ الإفلات من القمقم الذي وضع الطغيان فيه هذه الأمة ، فلم يعد من الممكن التحرر منه بحال من الأحـوال .

هذا ـ باختصار كبير ـ هو حال الأمة المسلمة في الجزائر منذ أواخر القرن التاسع عشر حتى العشرينات من القرن العشرين ، حيث اهتز العالم في انتفاضته بعد الحرب العالمية الأولى ، وحاولت الأمة الإسلامية في كل مكان من الكرة الأرضية ـ أن تجد لها مكانا بارزا من بين الأمم المستقلة المتطورة التي تنفض عن نفسها غبار الخمول والتخلف . وتشق طريق التحرر والانعتاق ... ولكنها وجدت نفسها وقد ضربت في وحدتها الدينية ضربات قاضية ، وأحاط بها الأخطبوط الصليبي والاستعماري . بعدما حطم وفكك البقية الباقية من ذلك الهيكل العظيم من الخلافة العثمانية ووجد العالم الإسلامي نفسه ممزقا بين مجموعة من الامراض

والعلل المزمنة في الداخل ، والأطماع والشهوات الشرسة المتلهفة عليه من الخارج ، فلم يعد يقوى على النهوض ، فاستكان متحسرا ، واستسلم ـ أسفا ـ للعاصفة التي كانت إعصارا عصف بوحدته ، ووضع أراضيه نهبا مقسما بين الدول العالة والمتحالفة ، فانحسرت الخلافة ، وانجرف ـ في انحسارها ـ جسم الأمة الإسلامية والعربية فغدا قطعا وأجزاء ، وكلها تحت الوصاية والحماية والاحتلال .

النهضـــة :

ولكن الله العلي القدير الذي خلق الموت والحياة ليبلونا ، وهو الذي يحيي الأرض بعد موتها ، ويبعث الحياة في الرمم البالية ، لم يكن يرضى لدينه أن ينتقص ولا لعباده المؤمنين أن يستكينوا للهوان ، فكانت بوادر النهضة تنحسر عنها صخور الخمول ، لتضع أمام المؤمنين الواعين معالم الطريق المحفوفة بالصخور والأشواك ، والمليئة بالعوائق والأخطار .. وظهرت الكتائب الأولى من المسيرة ، وبزغ الفجر معلنا ميلاد عهد جديد ، فاهتزت الأرض وربت وأنبتت بإذن ربها ، والتف العاملون المجاهدون حول أنفسهم فاجتمعوا وأرادوا ، وكانت إرادتهم من إرادة الله ، وهذا بالنسبة للعالم الإسلامي ككل ، وهو الأمر الذي امتد من

خلف الحجب ليشمل هذا الوطن .. فبالرغم مما بثه (الشيطان) في صفوفها من وسائل التفرقة ووسائل التدمير والتخريب ـ انتفضت الأمة الإسلامية واستجابت لدواعي النهضة في حدة منقطعة النظير ، وفي وعي أذهل جهابذة الفكر وحير أقطاب الباحثين في سنن التطور الاجتماعي ، حتى أن أحدهم وقف مبهورا مشدوها وقال ما معناه :

ان ما حققه (العلماء) في الجزائر من التحول والتطور من حيث الوعي والإدراك والفهم لمجريات الأمور ، وفي أقل من عقد من السنين ـ عجزت عنه (فرنسا) في أكثر من مائة عام .

فما أجدرنا ـ ونحن نقرأ هذا لخصومنا ـ بالتأمل في منة الله وحكمته في مثل قوله عز شأنه :

«يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته ، ولا تموتن إلا وأنتم مسلمون ، واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخوانا» (103 ـ آل عمران) .

ثم تتفجر اشعاعات المنة والحكمة الالهية لتبين في جلاء ووضوح أن الله عالم الغيب ، وكاشف الحيف ،

ومبدل الأمور ، ومغير الأحوال ـ لم يجعل من غيبه سرا معجزا إلا لأنه يعطف على خلقه ويشفق عليهم من التيه وراء المجهول ، فجاءت هذه الآية اللاحقة بعد السابقة :

«ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ، ويأمرون بالمعروف ، وينهون عن المنكر ، وأولئك هم المفلحون» .

فقبل أن يقول هذا القائل الفرنسي قولته مبهورا مذهولا ـ قال الله تعالى ، وبلغ عنه رسوله ، فلم يبق مجال لفعل (قال يقول) وإنما هناك مجالات لأعمال تتوفر وأعمال تتحقق ، لتتحقق المعجزة تبعا لذلك ، ونتيجة لالتزام النهج الذي وضعه الله لرسله والعاملين من عباده ، ونجاح (العلماء) في نهضتهم بالأمة وفي دعوتهم إلى الله ودين الله ـ كنجاح غيرهم أفرادا وجماعات ، عندما خلصت النية ، وانعقدت الإرادة ، وقوي العزم ، وصفت النفوس ، وزكا نور القلب مخلصا حنيفا لله

«فلا تحسبن الله مخلف وعده رسله ، إن الله عزيز ذو انتقام» (47 ـ إبراهيم) .

المـــراحــــل

لعل ما أوردنا في المدخل المتقدم كان كافيا لالقاء الأضواء الكاشفة على موضوعنا ، ولعلنا قد وضعنا فيه ما يدعو إلى التأمل والتفكير فيه ، حتى نعصم أنفسنا من الوقوع في مزالق الزيغ ونحن نتحدث عن عالم من علماء الإسلام ، وعن داعية من دعاة المسلمين إلى الله وإلى دينه الحق ، كان له في النهضة الوطنية أثر بالغ الخطورة ، تحيط به شبكة من الغموض ، أدت ـ بالكثيرين ـ إلى الانحراف عن الصراط السوي ، ولعل عذرهم في ذلك الغموض يبقى قائما لو أنهم ألزموا أنفسهم طريق الاعتدال في سوق الأحداث وتحليل المواقف ، والتماس الأعذار ، ومحاولة التكيف بالظروف المحيطة بكل الموضوع ... لا سيما ونحن الآن نريد أن نعرف الحقيقة كما هي ، بعيدين عن التأثر

والتوتر ، الحقيقة التي تلتمس الحق وتتحرى العدل والإنصاف ، وتتجنب الخطأ والاجحاف .

وأنا هنا لا ألتمس هذه الحقيقة كما يطلبها المؤرخ حين يروي الأحداث المجردة ـ فلست هنا مؤرخا بقدر ما أنا أريد تحديد ظروف هذه الأحداث كما عشتها في تلك الفترة الزمنية ، بمختلف وسائل التعامل معها .. أمّا ما عدا ذلك فقد لجأت إلى استنتاجاتي مما قرأته ـ بتأن وتأمل ـ من تراث هذه الفترة ، وما رويته عن الثقاة الذين عايشوا هذه الفترة وهم كبار واعون ... ثم وضعت جدولا زمنيا في ثلاث مراحل :

ـ المرحلة الأولى من سنة 1920 إلى سنة 1930
ـ المرحلة الثانية من سنة 1931 إلى سنة 1939
ـ المرحلة الثالثة من سنة 1940 إلى سنة 1960

وتلك هي المسافة الزمنية التي عاشها الأستاذ الشيخ الطيب العقبي على أرض الوطن ، واختتمها بنفسه كما أراد في وصية اشتدّ في الإلحاح عليها ، وهي :

لابد من تشييع جنازته من مقر سكناه إلى مقبرة شعبية توجد على شاطيء البحر في حي صغير غربي العاصمة في

الطريق إلى قرية «عين البنيان» ـ تشييعا سنيا بدون ذكر جهري ، ولا قراءة «البردة» ولا حتى قراءة القرآن حال التجهيز وحال الدفن . ثم لا يؤذن لأي واحد من الحاضرين بتأبينه قبل الدفن أو بعده ولو كان من أقرب المقربين اليه

هذه هي الوصية التي نفذت حرفيا لدى وفاته ، وقد حاولنا ـ مرارا ـ إقناعه بترك هذا للظروف التي تشيع فيها جنازته ، ولكنه ألح كل الإلحاح على ضرورة تنفيذ الوصية بحذافيرها وهو يقول مكررا :

ماذا ينفعني عند الله مدح المادحين على جثماني وأنا بين يدي الله ؟ لا سيما حين يكون المؤبن من الذين يقولون اليوم على جثمان الميت ما لم يكن يقوله عنه وهو حي بالأمس ؟ دعوني حينذاك مع الله ، فهو وحده يملك من أمري كل شيء ، وهو ولي في الدنيا والآخرة .

ولولا أن بعض الدوريات المحلية ، وبعض البرامج الإذاعية أعلنت نبأ وفاته وتشييع جنازته ـ لدفن كما يدفن «الجندي المجهول» لا يعلم أحد من أمره شيئا إلا أنه جندي مجهول ، كان اسمه يملأ دنيا الناس بالمفاخر والمحامد .

أما كيف عاش هذا الجندي المجهول في ميدان المعركة بطلا مغوارا ملأ حياة الناس فخرا واعتزازا ، وملأ قلوبهم

إعجابا وإكبارا ، فاستقريء تراث هذه الفترة فإنك تجد ما يذهل من المعجزات ، ثم سل ربك التوفيق إلى فهم دقائق الأمور من تلك الفترة الزمنية ، فإنك ستجد أمامك الحقيقة جلية واضحة في هذا البيت من الشعر العربي :

ان الـزعـامـة والطـريـق مخـوفـة
غـير الـزعـامـة والطـريـق أمـان ! !

العـــودة إلى الـوطـــن

ويحدثنا الشيخ الطيب العقبي بنفسه عن حياته الأولى في الكلمة التي كتبها في الجزء الأول من كتاب «شعراء الجزائر في العصر الحاضر» لمحمد الهادي السنوسي الزاهري(١) .

(١) الأستاذ محمد الهادي السنوسي ـ أديب جزائري لامع ، قضى كل شبابه وكهولته وشيخوخته ، مناضلا مجاهدا في وطنه يرمي بنضاله دعائم الشخصية الوطنية في عقيدتها ولغتها ومقوماتها ـ الى أن وافته المنية في السبعينيات من هذا القرن بعد مرض عضال عانى منه السنوات الطوال ، ولم يشيع جنازته الا صحبة من اقربائه ومعارفه الأدنين ، لأن وسائل الإعلام لم تنشر حتى خبر وفاته .. وحين حضر الامام ـ بعد صلاة الجمعة في مسجد القبة ـ لتأدية صلاة الجنازة ـ وكنت أنا في الصف الأول ـ سأل : هل الجنازة رجل أو امرأة ؟؟ وكنت أنتظر من هذا الإمام ان يعلن قبل أو بعد صلاة الجمعة خبر جنازة هذا العالم الأديب الذي أعطى كل حياته لدينه ولغته وأمته ، حتى إذا مات ، جهل الناس (كل الناس) خبر وفاته ، وجهل الإمام نفسه ـ وهو من أقرب معارفه اليه ـ الحنان المسجى في نعشه ، فسأل : هل هو رجل أو امرأة ؟ وكدت أصيح من الألم ، لولا أن جلال الموت حبس الصوت في حنجرتي ، فاكتفيت بذكر الاسم ... وهكذا شيعت جنازة =

فيقول «وأنا من مواليد (سيدي عقبة) (1) هاجرت ـ طفلا ـ مع أسرتي إلى البقاع المقدسة . واستقر بنا المقام في دار الهجرة بالمدينة المنورة» .

وفي دار الهجرة نشأ وترعرع ونما ، وفيها تعلم وعقل ورشد ، ومنها نفي من طرف السلطة التركية العثمانية ابان الحرب العالمية الأولى إلى تركيا حيث امضى في منفاه هذا أكثر من عامين ، عاد بعدهما إلى الحجاز وبه استقر في «مكة المكرمة» مكرما من أميرها (الشريف حسين) حيث تولى إدارة جريدة (القبلة) ومطبعتها الأميرية .. ولكن «البركان» المكبوت الذي كانت تعيش عليه البلاد العربية آنذاك ، بين أطماع الدول العربية المتحالفة والمتكالبة على ابتلاع ثرواتها وابتزاز خيراتها بالإضافة إلى مظاهر الظلم والاستبداد الذي كانت تمارسه (تركيا) .. كل هذا عجل

= هذا العالم الأديب وكأنه ـ في وطنه ـ غريب ، وما أكثر الغرباء في أوطانهم الذين ينشدون بلسان حالهم قول الفيلسوف العربي

أنا في أمة تداركها الله   غريب كصالح في ثمود !

(1) هو عقبة بن نافع الفهري ، صحابي أدرك النبي وهو طفل فحمل إليه فحنكه ، وقد جاء إلى هذا الوطن مرتين فاتحا بدين الله ، فاستشهد على تربته ودفن فيها ، وما تزال هذه البقعة تحمل اسمه العظيم حتى اليوم مع مسجده وضريحه ؛ وتبعد عن مدينة بسكرة بنحو (20 ك . م)

بعودة الشيخ الطيب العقبي إلى وطنه بحجة الإشراف على استرجاع أملاك الأسرة . وحال وصوله إلى الوطن استقر به المقام في مدينة بسكرة ، وهي الجزء المتقدم من الصحراء الجزائرية التي كانت خاضعة لحكم عسكري يشرف عليه ضابط عسكري باسم فرنسا .

وهنا يبدو كأن القدر هو الذي ساق كل هذه الأحداث من عالم الغيب . حيث عاد الشيخ الطيب العقبي من الحجاز ، وعاد الشيخ البشير الإبراهيمي من الشام ، ثم لحق بهما الشيخ العربي التبسي في نفس الفترة فترة العشرينيات ، وكذلك الشيخ المولود الحافظي ، والشيخ الزرقي الشرفاوي ، بعد تخرّجهما من الأزهر ... عادوا كلهم في فترات متقاربة ليكمل بهم العدد لمجموعة أخرى سبقتهم إلى ميدان العمل ومنهم الشيخ عبد الحميد بن باديس ، وتلميذه ورفيقه الشيخ مبارك الميلي ، فتألفت هذه المجموعة ـ بيد القدر ـ وتآلفت واجتمعت تحت لواء العلم والدين ، حيث تكونت بهم وبأنصارهم أولى عناصر النهضة منذ السنوات الأولى من العشرينيات .

ولعل ما كتبه الشيخ العقبي ، ونشر له في الجزء الأول من كتاب «شعراء الجزائر في العصر الحاضر» لا يعطينا

الصورة الحقيقية للظروف الواقعية لعودة هؤلاء الأقطاب إلى وطنهم وإقامة كل واحد منهم في مسقط رأسه .. ولم يكن هذا مجرد صدفة جمعت بينهم في حيز من الزمان فوق أرض هذا الوطن .. وإنما هو أمر ذو بال ، لو بحثنا ودققنا في البحث لوجدنا أن للمقادير يدا طولى في لمّ هذا الشتات وجمعه هنا في هذا الوطن بالذات ، لتتكون منه النواة الأولى التي تشطت عن السنة البرعم والتي تحولت من بعد إلى شجرة باسقة الظلال كثيرة الغلال ، وهي شجرة النهضة الوطنية التي احتوت كل الميادين الفكرية والعلمية في طرف من السنوات قليل .

إلا أن «القدر» حين يخلق ما يريد ويبدي من شؤون الغيب ما يأذن به علام الغيوب ـ يضع لهذا الخلق أسبابا ويهيىء لهذه الأسباب وسائلها وظروفها الملائمة .. فهل يا ترى كانت الصدفة وحدها هي كل هذه الوسائل ؟ أم كان هناك شيء آخر كان بمثابة إرهاصة لهذا العهد الذي تفجرت فيه النهضة الوطنية على أيدي هؤلاء العمد الأحرار ؟؟

هذه مجرد ملاحظة جاءت في وقتها ، وضعت لها حزمة من هذه التساؤلات ، عساها تصلح أن تكون منطلقا للباحثين في التاريخ الوطني ، وهدفي في ذلك شحذ الهمم ولفت الانتباه

إلى أكثر من جانب من جوانب هذا البحث ، في وقت كثر فيه الحديث عن كتابة تاريخنا أو إعادة النظر فيما كتب منه قبل اليوم تحت وطأة ظروف عسيرة لا يتأتى معها التزام الصدق والصراحة ، حتى لمن أوتي التزام الحق والعدل ..

أما الآن ـ ونحن بصدد استعراض صفحات من حياة رجل كان له الاثر الفعال في النهضة الوطنية ـ لابد لنا من التزام هذا النهج الذي سبقت الإشارة اليه في التقسيم الزمني منذ عودته من البقاع المقدسة سنة 1920 إلى حين وفاته سنة 1960 .

إقامتــه في مدينــة بسكــرة :

لقد قرأنا مما كتبه الشيخ الطيب العقبي في الوثيقة التي نشرناها في مفتتح هذا الكتاب من ترجمته ، إنه عاد من مكة (مقر هجرته الثانية بعد عودته من منفاه في تركيا) إلى وطنه الجزائر واستقر في بسكرة للإشراف على أملاك الأسرة ، أو لإعادة هذه الأملاك إلى الأسرة بعد السطو عليها ونهبها . ثم يشرف على تسيير هذه الأملاك واستثمارها استثمارا شرعيا (1)

(1) لقد أشار الشيخ العقبي فيما كتبه من ترجمته إلى هذه الأملاك ، وذكرها في عدد من مقالاته وكيف أنها كانت نهبا بين أيدي بعض المنتسبين إلى الطرقية»

ومعنى ظاهر هذا الكلام أن الشيخ عندما عاد إلى وطنه واستقر به المقام فيه قريبا من أملاكه ـ أصبح فلاحا يحمل في الصباح الرفش والمعول ويعود في المساء بعد أن يكون قد أنجز من عمله اليومي ما ينجزه الفلاح في حقوله. أو أنه كان يعيش كما يعيش الأثرياء، والملاك، يستأجر الأجراء للخدمة، ويشرف هو من قريب أو من بعيد على تسيير هذه العملية اليومية المتكررة، ليوفر لنفسه ولأسرته رغد العيش وهناءه.

إلا أن هذا لم يثبت أصلا إلا من حيث هذا الاستنتاج الذي تمليه ظاهريا ـ هذه الوثيقة التي كتبها الشيخ عن نفسه

أما الحقيقة التي تواترت، وأما الواقع الذي أسفر عنه تاريخ هذه الفترة من الزمن (1920 ـ 1930) فهو أن الشيخ العقبي كان يعيش بين أهله وقومه كما يعيش عالم سلفي يقرأ ويفهم ما يقرأ، وتتجاوب مفاهيمه وأفكاره مع هذه الآية الشريفة من كتاب الله:

«ومن أحسن قولا ممن دعا إليه وعمل صالحا، وقال إنني من المسلمين» (41 ـ فصلت).

= من الذين يدعون الزهد وهم يأكلون السحت .. انظر مقالة الشيخ تحت عنوان «مغرورون وأقوله»، المنشورة هنا في هذا الكتاب

أجل، ثبت هذا في تاريخ إقامة الشيخ الطيب العقبي في مدينة بسكرة بما لا يدع مجالا للشك. ثبت من الدروس العلمية والوعظية التي نظمها لبعض طلبة العلم ولكل عامة الشعب في مسجد «بكار» وهو المسجد الشعبي الوحيد الذي لم تنله التنظيمات الاستعمارية في وظائفه، ولم تدخله طقوس «التيجانية» المحتكرة لنفوذ أوراد العادات .. فاختاره الشيخ لدروسه ومواعظه وعباداته، وفيه أقرأ كتاب «الجوهر المكنون» وكتاب القطر في النحو[1] وختمه .. كما نظم فيه درسا في تفسير القرآن الكريم اعتمد فيه «تفسير المنار» للسيد رشيد رضا من دروس الإمام محمد عبده، رحمهم الله ورضي عنهم.

ثم ثبت هذا أيضا من مجالس الشيخ الأدبية في (جنينة البايلك) حيث كان يدير الحوار الأدبي في شتى فنونه بين عدد من الطلبة والمثقفين أمثال الأستاذ الأمين العمودي،

(1) أنظر ديوان محمد العيد، ص 89 طبع دار البعث ـ فيه قصيدة بمناسبة هذا الختم لكتاب «القطر» لابن هشام، ومطلع القصيدة

قـدر المجـــدُ المعتـــي بمرامـــه
فتــاقـــى الأجـــداد في إكـــرامـــه

والأستاذ محمد العيد آل خليفة ، وغيرهما ، وكل هذا لا يمكن أن يكون هكذا بمجرد صدفة ، وان كان للقدر فيه شأن عظيم

وقد روينا هذا عن الثقاة أمثال الشيخ حمزة بوكوشة ، والشيخ محمد العيد ، وعن الشيخ العقبي نفسه ، كما قرأنا بعضه مما نشر آنذاك في صحف : «الجزائر» و «صدى الصحراء» الجزائريتين ، و «العصر الجديد» التونسية للأستاذ المهيري من صفاقص ، ثم جريدتي «المنتقد» و «الشهاب» الصادرتين في قسنطينة بتأسيس وإشراف إمام النهضة عبد الحميد بن باديس ، ثم جريدة «الإصلاح» للشيخ الطيب العقبي نفسه ، وهي الجريدة التي سننشر في آخر هذا الكتاب مقالا حول طبعها في تونس ، ليدرك القارىء الباحث عن الحقيقة ـ أي التحديات التي كان يجابهها هذا العالم المصلح المجاهد داخل الوطن وخارجه ، والذي كان من السابقين الأولين إلى إشعال فتيلة النهضة الوطنية في مختلف ميادينها العلمية والأدبية والاجتماعية في وقت كان غيره من «طلبة العلم» يجري وراء الوظيف الحكومي ، وفي شيء لا تمتلك الحكومة حق التوظيف فيه وهو الدين .. وتلك إحدى مميزات الشيخ العقبي بلا مراء .

مميـزات الشيـخ العقبـي

أدبني ربي .. هكذا قال عن نفسه حينما اضطر للكتابة عنها ـ كما أسلفنا ـ ومعنى هذا أن دراسته في معاهد العلم على مناهج علمية ـ كانت محدودة ، لأنه نشأ يتيما مهجرا توفي عنه أبوه وهو طفل ، فنشأ في حضن أم أمية ليس لها من الوسائل إلا حصانتها وإرادتها .. فكان نجاحه في العلم والأدب إذن عائدا ـ بالدرجة الأولى ـ إلى مواهبه الذاتية وعصاميته الشخصية ، وهو الأمر الذي صاحبه دوما في كل مراحل حياته ، وقد عرف العلماء له هذه الميزة ، فأعطوه من أجلها ما يستحقه من التحلة والاحترام والتقدير والإعجاب [1]

(1) كتب عنه الإمام عبد الحميد بن باديس في صحيفة الشهاب ، العدد 158 بتاريخ 15 صفر 1347 هـ الموافق 2 اوت 1928 م وقال

من ذا الذي لا يعتقل في فتحه العلم الصحيح ، والعقد الطاهر ، والصراحة في الحق ، والصرامة في الدين ، والتحقق بالسنة ، والشدة على البدعة ، والطيبة في العشرة ، والصدق في الصحبة ـ إذا ذكر الأستاذ العقبي ؟!

ولا يعرف الفضل إلا ذوو الفضل .. فليطر الجاحدون المنكرون للجميل ـ اين يضعون انفسهم من هذا الفضل !!

موقف حاسم :

وحدثني أمير الشعر وشيخ الشعراء الأستاذ محمد العيد آل خليفة ـ وهو من هو صدقا وطهارة ونزاهة ـ حدثني عن الشيخ الطيب العقبي في عدد من المناسبات والمواقف ، حديث المؤمن العارف الذي يخشى الله ويتحرى الصدق والعدل فيما يرويه عن الناس ، كما رويت عنه الكثير عن علمائنا الأحرار الأبرار ، مما جعلني أوقن أنّ الشيخ العقبي كان من أولياء الله الذين آمنوا وكانوا يتقون الله ، والله تعالى يقول في حديثه القدسي ـ ولست بمحدث ـ «من عادى لي وليا فقد آذنته بالحرب» فليتق الله كل المتخلفين عن أمر الله ، الذين ينالون بألسنتهم وأقلامهم من ذمم وأعراض أوليائه الصادقين .

لقد عرف الناس جميعا ـ والعلماء خصوصا ـ ميزة للشيخ الطيب العقبي كانت له ديدنا مؤلوفا يتمسك به تمسك المستميت ، وهي صلابته في الحق ، أو فيما هو موقن بأنه الحق ، إلى درجة الحدة ، وكان الجميع يجلونه على هذه الميزة ويقدرون قدره في كثير من الإجلال والإعجاب

والقصّة التالية التي أرويها عن الأستاذ محمد العيد آل خليفة رحمه الله ـ تؤيد ذلك وتثبته ، قال :

كان الشيخ الطيب العقبي من الكتّاب البارزين في جريدتي «المنتقد» و «الشهاب» وهما معا للأستاذ عبد الحميد ابن باديس بقسنطينة ، وكان يكتب مقالاته عن السلفية والسنة والبدعة بأسلوب صريح مدعم بالحجج التي لا تقبل النقض ، مبينا بعد الأمة عن جوهر دينها تحت وطأة «الطرقية» وزيغها عن الصراط السوي ، فخسرت الدين والدنيا وكانت هذه المقالات تهدم معاقل هذه الطرقية معقلا معقلا ، مما حمل بعض مشائخ الطرق وأتباعهم ومريديهم يهرعون إلى بعضهم ويهرعون إلى الشيخ عبد الحميد وإلى والده بالذات (السيد الفاضل محمد المصطفى بن باديس) ليعملا على وقف هذا السيل الجارف عليهم وعلى نفوذهم من مقالات الشيخ الطيب العقبي ... وكانت ظروف العمل آنذاك تقتضي أن يكون اسم الشيخ ابن باديس وراء كواليس هذه الجريدة وتلك ، ولكن الجميع يعلمون أنه هو الذي أسس الجريدتين وهو الذي كان يشرف ويكتب ويحرر ما ينشر فيهما .

وتسبب المسعى من مشائخ الطرق والمتعاطفين معهم إلى صدور بيان يحمل عنوان : «في سبيل الوفاق» جاء فيه ما معناه

كما أن هذا الموضوع قد أخذ حظه من البحث والنقاش فإن الجريدة تعتذر لقرائها عن اضطرارها لإغلاق هذا الباب ... وعلى كتابها الأكارم أن يواصلوا مراسلاتهم في غير هذا الموضوع ، فالمواضيع واسعة وخدمة المجتمع فيها أجدى وأنفع .. الخ»[1]

ونحن بدورنا ندلي برأينا حول هذا البيان الذي مضى عليه من الوقت قرابة الستين عاما ، فنقول :

ما هو هذا الوفاق الذي في سبيله توقف الجريدة نشر مقالات العلماء والأدباء المصلحين وفي مقدمتهم الشيخ الطيب العقبي ؟ والتي هي بمثابة شواظ من نار على كل الذين ابتدعوا في دين الله السمح ـ كهنوتا ضللوا به الناس حينا من الدهر ، وأكلوا أموالهم بالباطل ، وجعلوهم يستطيبون العيش تحت حذاء الأجنبي ، لأنه في نظرهم قضاء وقدر من الله ، وهو الذي منح هذا الأجنبي حكم الناس في هذا الوطن المكروب ... فطاعة هذا الأجنبي إذن

(1) لعدم تمكننا من نشر هذا البيان والبيان المناقض له في قسم المقالات من هذا الكتاب ، وإلا فيكتفى الاشارة إليه مع بيان العدد المنشور فيه بتاريخه لمن يهتم بالتاريخ ووثائقه . أما نحن هنا فلا يعنينا من أمره إلا ما يتصل بشخص الشيخ العقبي لا غير

نظر المقال في قسم الوثائق والنماذج من هذا الكتاب

من طاعة الله ، وهم بذلك ـ يزعمون ـ ويفسرون الآية الكريمة من قوله تعالى «يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم» (الآية 59 سورة النساء) وهذا كقولهم أيضا : لا تفسروا القرآن ، فإن صوابه خطأ وخطأه كفر وقولهم . أعتقد ولا تنتقد .. وقولهم : لابد لك من شيخ يوصلك ، فمن ليس له شيخ فشيخه «الشيطان» ويقصدون بذلك «شيوخ الطرق» الذين يلقنون الأوراد للناس ويأمرونهم بترك تلاوة القرآن من أجل ترداد هذه الأوراد اثر كل صلاة .. وهم في سبيل تضليل الناس وابتزاز أموالهم واستبلاههم ـ قد اتخذوا لأنفسهم سمتا لا يفارقونه إلا في خلواتهم ، كما اتخذوا من الملابس زيا ، ومن العمائم لونا ، ومن اللحى والسبح أنواعا وأحجاما وأشكالا ، بقصد التأثير في العوام ليسوقوهم سوق الأنعام في صور مجموعات بشرية يحمّلونها أسماء وألقابا بلا مسميات ، فهذه الطريقة تسمي مجموعاتها (الأخوان) بفتح الهمزة ، والثانية تسميها : «فقراء» ومن مجموع هذه الألقاب والأسماء والأوراد الكهنوتية والأذكار المبتدعة ـ وصلت الأمة الإسلامية كلها إلى الحضيض من الخمول والجمود والهوان على الله وعلى الناس أمن أجل هذا يدعى الكتّاب المصلحون إلى ترك الكتابة في هذا الموضوع عملا بالحكمة الموجبة للوفاق ؟

وقرأ الشيخ الطيب العقبي هذا البيان في حينه ، فأدرك أن الباطل هو الذي دبر ، وهو الذي كاد كيده الآثم ، وهو الذي بدا منتصرا في المعركة ـ فثار ثورة عارمة وأعلن أن البيان فيه استخذاء للباطل وأهله ، وأنه ضعف من أهل الحق يؤدي إلى ضعف الحق أمام جحافل الباطل .. ثم أعلن مقاطعته للجريدة التي كان يكتب فيها ، كما أعلن أنه سيعمل على تأسيس جريدة تحمل اسم «الإصلاح» ، وهو ما تحقق فعلا بعد ذلك

وحاول الشيخ عبد الحميد بن باديس استرضاء الشيخ العقبي وإقناعه بضرورة العودة إلى الكتابة في مواضيع مختلفة ، فلم يجد من وسائل إقناعه واسترضائه غير الانتقال اليه في بسكرة

قال الأستاذ محمد العيد (رحمه الله)

وبعث الشيخ عبد الحميد إلى والدي يخبره بأنه سينزل في بسكرة ـ بالقطار ـ يوم كذا ، وهو يود الاجتماع بالشيخ الطيب العقبي عنده

واستقبل الشيخ ابن باديس في محطة القطار ببسكرة ، وفي بيت السيد (حم علي) والد محمد العيد التقى الشيخان ابن باديس والعقبي ، وحاول الشيخ عبد الحميد إقناع

الشيخ الطيب بوجهة نظر الجريدة في غلق باب الموضوع الذي كان يكتب فيه (ضد الطرقية المبتدعة) ، وأنه إجراء مؤقت لابد من العودة اليه حينما تتوفر الظروف الملائمة

ولكن الشيخ العقبي أصر على رأيه وساق من الحجج ما اقتنع به الشيخ ابن باديس فوعد خيرا ولم يرد ، ولكنه عندما وصل إلى قسنطينة ، أعلن فتح باب النقاش مرة ثانية ، ودعا في إعلانه هذا إلى عودة الشيخ الطيب العقبي إلى مجموعة كتاب الجريدة ، فقال الشيخ الطيب في مقاله : «الآن نعم» [1].

ومن هذا الموقف ـ كما في غيره من المواقف الكثيرة ـ نتبين أي شخصية قوية صلبة كان يحملها الشيخ الطيب العقبي ويمتاز بها بين أقرانه .. كما نعلم من هذا الموقف ، كيف كان هؤلاء الأخيار من علمائنا الأحرار ـ يقدرون الشيخ العقبي حق قدره ويهتمون الاهتمام كله بضرورة احترام آرائه ، لا سيما حينما تكون هذه الآراء في أمور الدين التي لا يصلح آخر هذه الأمة فيها إلا بما صلح به أولها

(1) أنظر مقال الأستاذ الإمام في قسم الوثائق والنماذج من هذا الكتاب

فأي عالم سلفي حضيت به النهضة الوطنية في ابانها ـ في شخص الشيخ الطيب العقبي عندما عاد من هجرته إلى أرض وطنه واستقر في مدينة بسكرة طورا من أطوار هذه النهضة المباركة من سنة 1920 إلى حوالي 1930 ، حيث انتقل إلى العاصمة بطلب من المجلس الإداري لجمعية نادي الترقي ليتولى منصب المحاضر الدائم في النادي ؟ فرحلة الإقامة في بسكرة والتصدي فيها للمبتدعين في الدين ، والمستكبرين في الدنيا . هي مرحلة المخاض أما المرحلة التالية فهي المرحلة التي تفجرت فيها عبقرية الشيخ العقبي ودفعت عجلة النهضة في سرعة بالغة نحو كل أهدافها

عشر سنوات من الثورة الفكرية تحت لواء الإصلاح الديني ـ قلبت كل المفاهيم الخاطئة في الأمة ، وكشفت فيها عن كل الأدواء . ووصفت فيها كل الدواء .. وكان فيها شخص الشيخ الطيب العقبي وصوته المدوى ومواقفه الحاسمة ، موضع اهتمام الكل وتقدير الكل من طبقات الأمة في هذا الوطن العربي المسلم

كما أن الشيخ الطيب العقبي كان ـ في هذه المرحلة ـ العالم الأول والمصلح الداعية الأول ، الذي أفزع دهاقنة

الاستعمار والاستغلال ، وهزّ عروشهم ، وزعزع تيجانهم على رؤوسهم ، وزلزل الأرض تحت أقدامهم (1)

أما فلول «الطرقية» الضالة ، واما مستدعوها من «المشائخ» و «المقاديم» ومعهم الأغرار من «المريدين» و«الأخوان» ، فقد كانوا يتوارون عن الأنظار حتى لا يتعرضوا لهذا السيل الجارف من اليقظة والوعي الذي عم الأمة من أقصى الشرق إلى أقصى الغرب في هذا الوطن .

فكيف تأتى له كل هذا النجاح المنقطع النظير ؟ بل كيف أمكنه أن يجمع كل وسائل هذه الثورة الفكرية مدفوعة ـ بشدة وسرعة ـ إلى ثورة اجتماعية ، أذهلت الناس عن أنفسهم فراحوا يهتفون باسم الشيخ العقبي حتى أصبح اسمه على كل لسان ، وأصبحت دعوته تهيمن في كل ميدان ،

---

(1) هذه حقيقة تاريخية لا ينكرها أحد من العقلاء الذين طهر الله نفوسهم من داء الحقد والحنق والشحناء .. ولولا أن هذا الكتاب يتطلب منا الإيجاز والاختصار ما أمكن ـ لسقنا من البيانات ما يؤكد هذا الرأي ويدعمه

فدروس الشيخ العقبي في نادي الترقي ومساجد العاصمة ـ هي التي أقضت الإدارة الفرنسية توازنها وحكمتها ، فراحت ترتجل القوانين والقرارات التي تمنع بها العلماء من التدريس والتعليم والوعظ في المساجد ، التي اغتصبت الحكومة أوقافها واحتكرت الإشراف عليها وتسييرها بعدد من الصحفاء والعملاء ، وما قرار «ميشال» عامل عمالة الجزائر آنذاك إلا طليعة لهذه القوانين والقرارات ، والتي كان المعني بها بالدرجة الأولى هو الشيخ الطيب العقبي لا غير

وأصبحت كلمة «العقبي» طغرى توضع على رأس كل عمل إصلاحي في المجتمع وكنا نحن المعلمين في مدارس جمعية العلماء حين نعبر الطرق نسمع بعض السفهاء يرددون حولنا كلمة «العقبي» تشهيرا بنا .

ونـادي الـترقي :

ونادي الترقي (في ساحة الشهداء بعاصمة الجزائر) في هذه الفترة ، هو مربض الأشبال وعرين الأسود ، وهو المركز الذي تنطلق منه القوافل ، وتتحدد فيه المناهج ، وتجيش فيه الكتائب ، وتتفجر منه الصوات الناسفة للضلالات ، والكاشفة لمخازي المستكبرين الذين عثوا في الأرض فسادا ، ومعهم عملاؤهم من المرتزقة والانتهازيين .

والشيخ الطيب العقبي في هذا النادي ــ آنذاك ــ هو نقطة ارتكاز ، وهو الشحنة المعبئة التي لا تنفد طاقتها لأنها تستمد قوتها من إرادة الله

فمن حين وصوله إلى العاصمة (الجزائر) وشروعه في إلقاء محاضراته ودروسه في هذا النادي ــ عرفت الأمة الجزائرية وجها جديدا للحياة الفكرية والثقافية لم تألفه من قبل ولم تعرف له مثيلا من قبل .

وان الاستعمار الفرنسي حين ادركه الفزع من هذا الجو الجديد الذي أصبحت عليه الأمة في العاصمة وفي كل المدن والقرى المجاورة ، والذي كان يمتد في كل يوم إلى كل أطراف الوطن ــ لم يكن هذا الاستعمار محطئا حين وقف في مواجهة هذا الخطر الذي يتهدده في هياكله ومجموعاته ... وكيف لا ؟ وقد رأى رأي العين ــ ان حلقات الذكر في الزوايا والتكايا والخلوات (1) والتي كانت تخدّر الأمة بشطحاتها وبخورها وبوظائفها (2) المتلوة في تحريف سخيف .. أصبحت كلها منهارة على رؤوس مدعي «الحلول» والوصول إلى (قدس الأقداس) .. وكيف ؟ وقد رأى هذا الاستعمار رأي العين ــ كيف أقفرت عرصات الشيطان ، وتحول أهلها إلى عبادة الرحمن ؟ وكيف أصبح الكهول والشبان ، والرجال والنسوان ، وليس لهم من حديث ــ في تلك الفترة ــ

(1) خلوات : جمع خلوة وهي غرفة مظلمة لا يدخلها الهواء إلا نادرا ومن كوة في الجدار ، يخلو فيها «شيخ الطريقة» خلوا طالما كان مريبا ، وهي بدعة ضالة مضلة لا يأتيها إلا ضال مضل ...

(2) الوظيفة : اسم لصيغة معينة من مختلف الاذكار . ولكل شيخ وظيفته ، ولكل طريقة وظيفتها كذلك .. وطالما فضلت طريقة من الطرق الضالة ــ وظيفتها على القرآن الكريم فضلا عن غيره من كتب الفقه والعلم .. والعجيب أن بعض هذه الطرق ، ما تزال حتى اليوم تأتي المنكر في ناديها فأين وزارة الشؤون الدينية ؟ والمجلس الإسلامي الأعلى ؟

يهتمون به في كل مجالسهم ـ غير هذه الحياة الجديدة المستجدة ، فكانت كلمات الإصلاح ـ الطرقية ـ الجمود ـ اليقظة ـ النادي ـ الأمة ـ الحكومة ـ السنة ـ البدعة ـ . الخ

ثم كلمات : جمعية العلماء ـ النهضة ـ الوطنية ـ العلم ـ الجهل ـ العربية ـ الفرنسية ـ الوطني ـ الأجنبي ـ الحقوق ـ الواجبات ـ الحرب ـ الجريدة ـ الكفاح ـ الجهد ـ الشجاعة ـ الايمان . الخ .

كل هذه الكلمات لها مدلولاتها المختلفة في نفوس الناس لذلك الأوان ، وكلها من مترادفات الحوار الذي يجري في الشارع وفي المقهى وفي المتجر وفي الحقل وفي المعمل وفي المكتب .. وهي كلمات ترددت في صيغ مختلفة مئات المرات ، في محاضرات ودروس وخطب الشيخ الطيب العقبي في نادي الترقي وفي المسجد الجديد بالخصوص وحتى في بيوت الأعيان والمصلحين التي يدعى اليها في العاصمة وفي غيرها من المدن والقرى المجاورة ، كالمدية ، والبليدة ، والأربعاء ، وشرشال ، ومليانة ، وبوفاريك ، والقليعة ، وغيرها

ثم تحول هذا من القول الصريح إلى العمل الصّحيح في كتل وجمعيات ومنظمات . وفيها كتائب تشبه إلى حدها

كتائب الفدائيين التي تختبيء في سرية وتعمل في خفاء . مثل جماعة «الجيش الأزرق» (1) وهي منظمة تكونت من المصلحين الشباب المتأثرين بالحركة الإصلاحية الجديدة ، والمبهورين بشخصية الشيخ العقبي . فتكونت منهم هذه المنظمة التي تشبه خلايا المستضعفين من الأرقاء والعبيد الذين ضاقوا ذرعا باستبداد الأسياد ، فراحوا ينظمون أنفسهم استعدادا ليوم الفصل . وهذه هي مجموعة الشبان المتسكعين المنحرفين الذين كانوا ينظمون أنفسهم ويسرفون عليها . . تأثروا بدروس ومحاضرات الشيخ الطيب العقبي . واهتدوا إلى الإقلاع عن كل الدنايا ، والتكفير عن السيئات بالرجوع إلى الله والإهتداء بهديه ، ثم إلى استعمال العنف أحيانا في الدفع عن الحركة وعن محركها الشيخ العقبي الذي كانوا في حراسته أينما كان وحيثما حل

(1) armée bleue اسم اطلقه المعمرون الفرنسيون ـ سخرية واستهزاءا ـ على جماعة من الشبان الفقراء الذين يكدحون الليل مع النهار في تفريغ وشحن البواخر الراسية في ميناء الجزائر العاصمة ، وهم في أيام عملهم كما في أيام عطلهم يرتدون نوعا بدلة زرقاء ، تلازمهم ويلازمونها في غدوهم ورواحهم . ومن خصائص هذه البدلة أنها شديدة المقاومة للبلى ... ولئن سخر الاستعمار منهم ومن رحمهم الله اليه على يديه ـ فقد ذاق هذا الاستعمار بعد ذلك الأمرين من هؤلاء الشبان الذين صاروا رجالا أشداء عندما أدركتهم الثورة التحريرية سنة 1954

ومنظمة «الجيش الازرق» هذه معروف أمرها في تاريخ الحركة الإصلاحية في الثلاثينات عندما كان الشيخ العقبي محاضرا رائدا في نادي الترقي ، وعيا من عنده اليوم حيا في سن متقدمة ، ما يزال يذكر ذلك العهد بتمجيد وإعزاز ، لأنه مكنه من الإهتداء بهدي الله ، ووضع اسمه في قائمة «حزب الله» ، وكل هذا كان بفضل هذا العالم العامل الداعية إلى الله المصلح المجدد للعقيدة السلفية والمفجر للطاقة الفكرية والإجتماعية في النهضة الوطنية : الشيخ الطيب العقبي رحمه الله في العلماء العاملين .

وفي هذه الفترة ، توج الله نعمته على هذه الأمة — فتأسست «جمعية العلماء المسلمين الجزائريين» ، وكان «نادي الترقي» هو المكان الوحيد الذي شهد ميلاد هذه الجمعية المباركة (في 5 ماي 1931 م) وكان الشيخ الطيب العقبي أحد الرواد المؤسسين ، وأحد الأقطاب المسيرين ، وأحد الأركان الذين قامت على كواهلهم هذه الحركة المجيدة منذ أول يوم برزت فيه — سراجا وهاجا في سماء هذا الوطن ، فتولى الدعوة اليها منهاجا وأسلوبا وسلوكا . وأمدها بكل ما يملك من جهد وتضحية وعطاء .. تولى تحرير صحفها الواحدة بعد الأخرى : السنة ، الشريعة ، الصراط ..

عطلتها الإدارة الفرنسية كلها بقرارات تعسفية وبإيعار من مديرية الشؤون الأهلية ، وبسعي من أقطاب المعمرين ، وجاء المنع بعد تعطيل الأخيرة (الصراط) مصحوبا بقرار متعنت يقول : ممنوع على جمعية العلماء إصدار أية صحيفة باسمها إلى حين إشعار آخر . واستمر هذا المنع قرابة العامين ، من سنة 1933 — إلى سنة 1935 ، وكانت الصحيفة الوحيدة التي تنشر بيانات الجمعية وتبلغ صوتها حينذاك ، هي «مجلة الشهاب» للإمام عبد الحميد بن باديس

ولما سحبت الحكومة الفرنسية المستشرق «ميرانت» وعينت مكانه مستشرقا آخر هو «ميو» واستقبل الجمعية في وفدها ومنه الشيخ الطيب العقبي — وعدها بالنظر في الترخيص للجمعية بإصدار جريدة تتحدث باسمها ، وبعد شهور عديدة من المشاورات والمناورات وبالضبط في شهر ديسمبر 1935 — رفع المنع وألغيت القرارات التعسفية ، وأذن للجمعية بإصدار جريدة ، فكانت جريدة «البصائر» التي تولى إدارتها الشيخ الطيب العقبي ، إلى حين انتهاء هذه الفترة العامرة بجلائل الأعمال وكرائم الفعال ، التي تشهد للشيخ العقبي بالعلم الجم ، والعمل الخالص ، والتضحية النموذجية المجردة من كل «غرض» و «عرض» و «مرض» ،

مما وضعه في قائمة الشرفاء ، النزهاء ، الذين يخرجون من المعركة وقد سلمت ايديهم من الوحل ، وطهرت ذممهم من كل ما يصم الرجل العفيف الشريف ، فكان بذلك مثال الأمانة والنزاهة والطهارة والخلق الإسلامي الكريم .

اغتيـال المفتـي كحـول :

لقد قلنا آنفا ـ ان الاستعمار الفرنسي في الجزائر حين أدركه الفزع من اليقظة التي عمت الأمة الجزائرية من جراء هذه الحركة الإصلاحية المباركة ، لم يكن محظه حين دق أجراس الخطر وراح يغوص في الكيد ، ويدبر المؤامرات ، ويدس الدسائس .. ولكن ماذا بقي في جعبة هذا الاستعمار من وسائل الكيد والدس والمؤامرة ؟ !

لقد نشر كل الأوبئة بين كل أفراد الأمة ليشغلهم بهموم انفسهم وذويهم ثم يحولهم بعد ذلك إلى مجموعات من المرتزقة الذين يقبلون رأس ويد السيد الذي يطعمهم من فتات مائدته ، ويكسوهم مما رث واهترأ من ثيابه .

ثم حين دبت اليقظة في أفراد هذه الأمة وراحوا يعلنون أنهم آدميون وأن لهم ما للآدميين من كرامة وأنفة وعزة ـ سلكهم جميعا في سلك اللصوص وقطاع الطريق الذين

يعضون اليد التي تحسن اليهم وينكرون المعروف ويجحدون النعمة . فهو الذي حمل اليهم المصباح السماوي الذي أخرجهم من ظلمات الجهالة والهمجية إلى نور الحضارة والمدنية .

ثم عطل الصحف وعصف بأهلها بالسجن والتعذيب والنفي ، وأغلق الكتاتيب القرآنية ، ومنع فتح ما كان يسمى بالمدارس لتعليم العربية ، وحجّر على العلماء دخول المساجد فضلا عن التدريس فيها ، وشرد المعلمين ، وفرض عقوبات مالية وجسدية على المخالفين والمتحدّين .. وهذا بالإضافة إلى قوانين جائرة استبدادية متعفنة كانت ما تزال سارية المفعول عمليا ، يعامل بها المواطن الأهلي ـ بعد أن ألغيت هذه القوانين تلقائيا بحكم الظروف السياسية العالمية والفرنسية

وعندما أحسّ هذا الاستعمار بالخطر يحدق به كل يوم ، ويزداد به ضراوة كل يوم ، حتى عم وطم وكاد يجرفه في تيار عاصف ، لا سيما بعد إجماع الأمة على ضرورة خوض المعركة إلى النهاية تحت لواء «المؤتمر الإسلامي الجزائري» الذي اشتركت فيه الطاقات الوطنية على اختلاف ميولها ومذاهبها وأهدافها

بعد كل هذا فقد هذا الاستعمار كل صوابه فراح يخبط ويخلط ، ويأتي بأكبر بهتان سجله له التاريخ بمداد

الخزي والعار ، لا يمكن أن تمحى صحائفه مادام في الدنيا حاكم ظالم ومحكوم مظلوم ...!

فكانت المأساة ، وكان البلاء ، وكانت المحنة ، وانصبّ كل هذا مجتمعا على هذه الأمة في إطار جمعية العلماء ، وفي شخص الشيخ الطيب العقبي بالذات تلك هي خيوط الملحمة من فاجعة اغتيال المفتي محمود كحول واعتقال الشيخ الطيب العقبي ووضعه وراء قضبان سجن «بار باروس»

– عجيب أمر هذه الفتنة ، وعجيب أمر الاستعمار فيها !!

- الإدارة الفرنسية بالجزائر ،
- والمستوطنون الفرنسيون والمتفرنسون بالجزائر ، ومنهم اليهود المتصهيون .
- وكذلك الأحزاب الفرنسية بالجزائر ، من أقصى اليمين إلى أقصى اليسار .
- والعدالة الفرنسية بالجزائر ، بجميع مجالسها وقضاتها .
- والأمن الفرنسي بالجزائر ، بجميع أجهزته الرسمية وغير الرسمية .
- ثم المبادىء الحضارية الفرنسية بالجزائر .

كل هذا دنسه الاستعمار الفرنسي في الجزائر ومرّغه في الوحل ، وأغرقه في حماة من الدرن والعفن ـ حين دبر مكيدة اغتيال المفتي ببرنسه وجبته وعمامته ليتّهم عالما مصلحا بجريمة قتل ، ثم يضرب به الضربة القاصية .. جمعية العلماء ، وهو يعتقد جازما أنه بعمله الدنيء هذا سوف يقضي على الحركة الإصلاحية ، ويدفن النهضة الوطنية ، وبهذا كله سيؤبد وجوده في هذا الوطن بعد إلحاقه إلحاقا كليا بما كان يسميه «أم الوطن» !!

فلنترك إذن هذا الاستعمار ، في هذا المدار ، بل في هذا العار ، ولنتوجه إلى الشيخ الطيب العقبي في نادي الترقي بعد الاجتماع العظيم الذي دعا إليه المؤتمر الإسلامي الجزائري في الملعب البلدي إثر عودة وفده من فرنسا ، يوم الأحد الثاني من أوت 1936 ـ وهو يوم اغتيال المفتي كحول في شارع لالير بعاصمة الجزائر .. فماذا وقع بعد هذا اليوم التاريخي العظيم ؟

الجيش الأسود ببنادقه الحربية يحلق على النادي من جميع جهاته . والبوليس والدرك المتحرك في كل اتجاه ، والشرطة السرية بالأزياء المدنية تغدو وتروح .. كل هؤلاء وأولئك يطوقون الساحة والممرات والشوارع،

- ممنوع الدخول إلى أي مكان .
- ممنوع الخروج من أي محل
- ممنوع التجمع للراجلين من بعيد .
- ممنوع الكلام والتساؤل
- المشي في هذا المكان ممنوع ، والوقوف فيه ممنوع .
- كل شيء ممنوع ! !

السلاح مصوب إلى كل اتجاه ، والعيون تلحظ كل حركة ، والجو ثقيل رهيب .. ماذا وقع ؟ لا أحد يتكلم .

وفي هذه اللحظات الثقيلة كساطور الجلاد ـ يخرج الشيخ الطيب العقبي من نادي الترقي بين كوكبة من الجيش الشاكي السلاح يحيط به جمع من الشرطة السرية (الزبانية) ، مصفدا بالحديد ، مجردا من برنسه وعمامته ، يساق سوق المجرمين ، ويهان في نذالة وبذاءة واستهتار .. إلى أين ؟ إلى العدالة . وأين العدالة ؟ بل إلى سجن باربروس .

المجرم في هذه القضية مظلوم بالعدالة . فكيف بالمظلوم البريء ؟ وسيق الشيخ إلى سجن باربروس ، ثم ألحق به صاحبه السيد عباس التركي (محمد وعلي) ، فهما في نظر العدالة الفرنسية وحكومتها في الجزائر ـ قاتلان مجرمان ،

الشيخ العقبي حرض على القتل وأوصى به القاتل . والسيد عباس التركي استأجر القاتل . وأعطاه المدية ودفع المال . وكل هذا وقع في مكتب الشيخ بنادي الترقي وبجانب غرفة الصلاة فيه (!) .

وأطبقت الفتنة بكلاكلها على قلب الأمة ، فازداد النحس وكادت الصدور تنفجر ... ولكن الله العلي القدير أبى أن يمكّن رؤوس الفتنة من هذا النجاح بلوغ الهدف الذي أرادوه بهذه الحملة من الاستفزازات .. فصاخت الأمة إلى صوت العقل والحكمة ، من بلاغات جمعية العلماء التي تأمر الناس بتفويت هذه الفرصة على مدبري هذه الفتنة ، ومضت ستة أيام بلياليها ، كان الشيخ العقبي يغدو ويروح بين السجن وقضاة البحث وجلاديه ... حتى حقت كلمة الله في مثل قوله عز شأنه :

«حتى إذا استيئس الرسل ، وظنّوا أنهم قد كذبوا ، جاءهم نصرنا ، فنجي من نشاء ، ولا يرد بأسنا عن القوم المجرمين» (110 ـ يوسف) .

امتداد المحنة وانعقاد البلاء :

وخرج الشيخ الطيب العقبي من سجن باربروس

ـ في حرية مؤقتة ـ أشد ما يكون مضاء وأقوى ما يكون عزما .. ولكن المحنة استمرت وتعقدت على مر السنين ، وأصبح البلاء سيفا مصلتا على رأس الشيخ قرابة ثلاث سنين ، يغدو فيها ويروح بين السجن ودار العدالة ، وفي جلسات تفتح أحيانا وتغلق أحيانا أخرى (1) وكل هذا من أجل ماذا ؟

ليس هناك في نظر الاستعمار الفرنسي وعدالته (الزائفة) في الجزائر ـ قضية قتل وقتيل وقاتل . إنما هناك نهضة أمة ، وحركة إسلامية ثورية ـ في حدود عقيدتها ـ تقود الأمة كلها إلى عزتها وكرامتها .. ثم هناك من وراء كل ذلك ، كان الرائد القائد العالم العامل المناضل .. كل هذا ـ في نظر الاستعمار ـ يجب أن يزول ..!

هذا وحده هو منطق الاستعمار في إدارته وعدالته وحضارته ، وهذه هي محنة الأمة فيه .. فاذا كان موقف الشيخ الطيب العقبي في المأساة وتوابعها ولواحقها ؟؟

---

(1) أنظر تفاصيل هذه الجلسات القضائية من هذه المهزلة ـ مما كتبه الإمام عبد الحميد بن باديس الذي حضر بنفسه كل جلسة منها ، باعتبارها قضية جمعية العلماء وقضية الأمة كلها لا قضية الشيخ العقبي وحده . أنظر تفاصيل هذه في جريدة البصائر ، مما كتبه الشيخان الرئيسان ابن باديس ، والإبراهيمي ـ لتدرك حقيقة المأساة

القوة والضعف :

ليس هناك قضية قوة وضعف ـ كما يحلو لبعض «الموتورين» و«المتفلسفين» أن يقولوا منذ أن وجدوا للقول سبيلا فقالوا ، وكان من الخير لهم أن يسكتوا لو أنهم استشعروا ـ من أنفسهم الحاقدة ـ وقر الاثم الذي تحته يرزحون ..!

أما نحن فلا نقول إلا ما علمنا ربنا أن نقول : «ربنا لا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا وهب لنا من لدنك رحمة إنك أنت الوهاب» (8 ـ آل عمران) .

ليس هناك إذن ـ فترة قوة وضعف في حياة الشيخ الطيب العقبي من حيث عقيدته الإسلامية ، وحركته الإصلاحية ، ودعوته إلى الله على بصيرة . ولكن هناك الرأي الصريح والموقف الواضح . وهناك الصرامة في الحق وفيما يبدو أنه الحق .. وهناك قبل وبعد كل شيء ـ قضية اجتهاد ، وحرص فيه على الاستمساك بعروة الله الوثقى . هذا كل ما في الأمر .. !

وأحسن ما نذكّر به الشباب ـ من قراء اليوم والغد ـ هو واجبهم في تحري الحقيقة وسبيل الحق . بالبحث عنهم

فيما كتبه الشيخ العقبي نفسه ، وفيما كتبه عنه الشيخان : عبد الحميد بن باديس ، ومحمد البشير الإبراهيمي فهما وحدهما يعبران ـ بصدق ونزاهة ـ عن هذه الحقيقة ، اما ما كتبه غيرهما منذ تلك الفترة حتى اليوم ـ فأقل ما يقال فيه : أنه نبش للقبور ، وإرادة الطهور ، بقاصمة الظهور (!!)

والشيخ الطيب العقبي ـ بعد كل هذا ـ بشر وإنسان ، يعتريه ما يعتري الناس من الضعف والقوة ومن الخطأ والصواب ، ولكنه في كلا الحالين مأجور غير مدرور ..!!

فاقرأوا أيها الشباب .. قراء اليوم والغد ـ تاريخ أمجادكم واعلام تاريخكم ، في مصانه مما خلفه لكم هؤلاء الأبرار الاحرار من الآثار ... فإن قلتم : أين هي هذه الآثار ؟ أقل لكم : إنها تراث أسلافكم في ذمتكم فطالبوا بتوفيرها بين أيديكم ، فطبعها ميسور ، ونشرها غير محصور ، فلا تتوانوا ، ولا تتواكلوا ، فالظروف الآن لذلك مؤاتية ، وليس في مقدور الإنسان أن يضمن لنفسه السلامة كل آن قبل فوات الأوان

الخروج من إدارة البصائر :

ونمشي الهوينا في دروب هذا التاريخ المليء بالأعاجيب ، لنصل إلى شهر سبتمبر 1937 م ، حيث أعلن الشيخ الطيب

العقبي ـ تخليه عن إدارة جريدة البصائر ، لتنتقل الجريدة بعد ذلك من العاصمة إلى قسطينة مقر طبعها الجديد ، وينتهي عهد من حياة الشيخ العقبي في ميدان العمل الصحفي لجمعية العلماء ولنصل بعد أقل من سنة واحدة ـ إلى الفترة ما قبل الأخيرة من حياته وهي الفترة الحرجة والحاسمة التي وجد بعض الناس فيها ثغرات ضعف لم يكلفوا أنفسهم عناء البحث والتأمل في مقتضياتها وظروفها ، ولم يحاولوا التكيف مع هذه الظروف ليخرجوا منها وقد سلمت نفوسهم من الغيظ ، وسمت عقولهم عن سخائم الحقد والحنق ، وصفت قلوبهم من الشحناء والبغضاء ، ووقفوا موقف الاطهار من عباد الله الصالحين الذين يأتسون بسير الأنبياء والصديقين الذين وقف أحدهم وهو السيد المسيح عليه الصلاة والسلام ، حينما وقف في مواجهة قومه الذين تجمعوا ـ بعصيهم ـ ليستمتعوا بمنظر عذاب امرأة أعدت لإقامة الحد عليها بالرجم ، فقال قولته الشهيرة :

ـ من كان منكم بلا خطيئة ، فليرمها بحجر !!

فمن منهم بلا خطيئة ؟ ومن من الناس بلا خطيئة ؟!

من ذا الذي ما ساء قط ؟

ومن له الحسنى فقط ؟

وعلى هذا سنمضي في مجابهة الأحداث إلى نهايتها .. الأحداث الحاسمة التي تركت بصماتها على شخصية الشيخ العقبي المثالية ، والتي لم تستطع السنون أن تمحو آثارها من ذاكرة هذا الزمن .. حتى أن بعض الناس أبوا ـ أخيرا ـ إلا أن ينفخوا في رمادها ، ويعملوا ـ كل بطريقته حسب مطامحه ـ على تلوين ، هذه الأحداث بألوان لا تحتملها الأحداث نفسها ، فضلا عن شخصية هذا العالم المصلح الجليـل .

ولو أن هؤلاء جميعا أرادوا أن ينصفوا التاريخ والمهتمين بكل الجوانب التاريخية ـ لا سيما أخلاقيات التاريخ ـ لعملوا بعملية التحري في سوق الأحداث التاريخية كما هي ، من غير انجراف وراء الملابسات والاستنتاجات الخاطئة والمغرضة .. ولكنهم «عدلوا عن العدل» وساق ـ بعضهم ـ الأوهام مكان الحقائق التي كتموها بعد العلم بها . فكشفوا عن أنفسهم حين أرادوا الكشف عن غيرهم ، فوقعوا في المحظور ، ونبشوا رفات القبور . والله عليم بذات الصّدور «وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون» (227 ـ الشعراء) .

ولولا أني قد آليت على نفسي .. أن أمضي قدما في مجابهة الأحداث في استعراض هذه الصور من حياة الشيخ

الجليل من مشائخنا الأجلاء وروادنا الأدلاء ـ من غير أن أخشى هذه المجابهة مما تتطلبه من الحزم ومن الشجاعة ـ لكنت آثرت السلامة في تجنب الخوض في هذا الحديث المؤلم ولكني سأمضي في طريقي من غير أن أنسى فضائل الغير حتى بالنسبة للمخالفين المتعنتين ، فالله أمرنا بالتزام مواقف العدل والإحسان فيه ، فقال جل شأنه :

«ولا يجرمنكم شنئان قوم على أن لا تعدلوا ، اعدلوا هو أقرب للتقوى ، واتقوا الله ، ان الله خبير بما تعملون» (8 ـ المائدة) .

وعلى هذا الأساس سأمضي إذن في استعراض شريط هذه الأحداث التاريخية الحاسمة لهذه الفترة الزمنية الحرجة منذ صيف سنة 1938 م .

مـأسـاة خروجـه مـن إدارة جمعيـة العلمـاء :

في صيف سنة 1938 ، بل قبل ذلك بقليل ـ كان «نيرون الدنيا» (هتلر) يلوح بقبضته ـ متشنّج ـ وهو يهدد العالم أجمع ـ وجيرانه الأوروبيين و (السكسون) على الخصوص ـ بإشعال نار حرب عالمية ثانية تأتي على الأخضر

واليابس من حياته وحضارته .. وكانت فرنسا من جيرانه الأقربين الذين أذهلتهم هذه التهديدات والإنذارات المتلاحقة .. ففزعت فرنسا وراحت تجس النبض في كل مكان لتعرف مكانتها وتهدد أحلامها باستطلاعات في كل مستعمراتها وحليفاتها .. وكان نصيب الجزائر من هذه الاستطلاعات البوليسية المتخفية ـ هو النصيب الوافر ، نظرا لتخوفاتها منها ، ونظرا لكونها ـ في نظرها ـ هي نقطة الإرتكاز والإنطلاق إلى غيرها من شعوب المغرب وأفريقيا وآسيا .. فصبت بلاءها الأسود على الأمة الجزائرية وشعبها ، وجندت لها كل أقطابها وعملائها في كل مكان ، وقذفت بهم إلى الجزائر (ذؤبانا) في وداعة (حملان) فتفرقوا في كل مكان يتباكون ويتضاغون ويعقدون الاجتماعات السرية ويخططون المؤامرات المحبوكة ، ويدسون ويكيدون . ثم تفتقت ذهنيتهم على ضرورة ضرب الحركات والتجمعات التي لها وزنها وثقلها في الأمة ، لتفقد بعد ذلك ثقة الأمة ، فأوعزت إلى شياطين مخابراتها من «العلماء» و «رجال الدين» المتلبسين بجرائم الجوسسة والمتعاملين مع السياسة الاستعمارية وهم في ثيابهم الكهنوتية والجامعية ـ أن يتناجوا مع بعضهم (والنجوى من الشيطان) ويعملوا بالرواح على الديموقراطية وعلى الحرية التي تمثلها (فرنسا العريقة) بمبادئها الثلاثة . . !

ونظر هؤلاء في الأمة فلم يجدوا من يعبر عنها أصدق تعبير ، ومن يعلن عنها أخطر تقرير ـ إلا جمعية العلماء العلماء المسلمين الجزائريين ، فوقع الاتصال بشخصين منها وهما : عبد الحميد بن باديس ، والطيب العقبي . حيث دعيا معا إلى اجتماع سري صغير في منزل رجل فرنسي يلبس لبس العلم ، ويتزيا بزي العلماء الجامعيين ، ويدعى هذا الأستاذ (لويتشون دورف) أستاذ بجامعة الجزائر آنذاك[1] ويحضر الشيخان هذا الإجتماع في المنزل المذكور ومعهما مترجم (أمين) اختاره الشيخان معا ، وهناك ـ في هذا الإجتماع ـ عرضت الفكرة الجهنمية التي كان ظاهرها الرحمة وباطنها العذاب ، وأي عذاب ؟ !

تقول هذه الفكرة المشؤومة :

ان على جمعية العلماء بمناسبة هذه الظروف الحرجة ـ أن تبعث برقية باسمها وباسم ـ المسلمين بالجزائر إلى فرنسا في فرنسا . تعلن فيها ولأهاليها بصفتها حامية الديمقراطية

(1) هذه القصة أرويها كما أخذتها عن الأستاذ محمد العيد آل خليفة عليه رحمة الله وقد سبق أن حكيتها وذكرتها لبعض رجال الجمعية فأقروها والأستاذ محمد العيد أصدق من روى عن جمعية العلماء وعن الشيخين ، ابن باديس ، والعقبي ، فهو أكثر أمانة ونزاهة واعتدالا ومراقبة لله في السر والعلن ، ومن قال غير هذا فهو آثم

والحرية في العالم ، وتدين فيها الدكتاتورية التي تهدد الحرية والديمقراطية في العالم

هذا هو فحوى هذه البرقية بإجمال واختصار ، ومن أراد زيادة التحري ، فيرجع إلى صحف ذلك العهد ففيها تفصيل كل تفصيل . أما أنا فلا يهمني من هذا الحادث المشؤوم – إلا أمر هذه البرقية الملعونة ، وتلك الظروف المرة . التي حضرتها بنفسي وأنا في أول شبابي ، وأقسم الآن بأني مازلت أجد في نفسي مرارتها وهي تعكر علي صفو الحياة كلما ذكرتها أو جرتني الظروف – كهذه الظروف – إلى ذكرها .. وأظنني سوف لا أتخلص من هذه الآلام ومن مرارتها وبشاعة منظرها – إلا حين يمن الله بلقاء هذين الأستاذين العظيمين (عبد الحميد بن باديس – والطيب العقبي ، مع علمائنا الأحرار) وقد تحقق فيهم جميعا قول الشيخ العقبي لي في مكتبه بنادي الترقي ، والله ثالثنا :

يعرف الناس ويثرثرون بما بيني وبين الشيخ عبد الحميد من خلاف وخصام وسوف لا ينتهي كلام الناس ما داموا عبيد نفوسهم ومختلف أهوائهم ، أما أنا فإني على يقين بأن الله سيجمعنا ويحقق فينا قوله تعالى :

«ونزعنا ما في صدورهم من غلّ اخوانا على سرر متقابلين» (47 – الحجر)

وخرج الشيخان (ابن باديس ، والعقبي) من منزل الأستاذ الفرنسي الموعز اليه (من جهات) – حسب تعبير الإمام ابن باديس – ليتصل بهما ويعرض عليهما مشروع الفكرة لتنفيذ بعد اقتناعهما . ولكن رئيس جمعية العلماء وعضوا إداريا واحدا في إدارة جمعية العلماء – لا يملكان حق إبرام الأمر – حتى ولو اقتنعا – إلا أن يزكى رأيهما المجلس الإداري كله ، لهذا وعد الرئيس بعرض الفكرة على المجلس الإداري في الإجتماع الموالي

والمجلس الإداري رأى – بما يشبه الإجماع – أن النظر في أمر هذه البرقية غير ذي موضوع ، فهو لا يصلح للنقاش إطلاقا .. ولكن الشيخ العقبي أصر على ضرورة مناقشة هذا الأمر ، لا سيما والمجلس الإداري لجمعية العلماء ، اعتاد توجيه برقيات إلى الدوائر الحكومية بعد كل اجتماع عام .

ونوقش أمر البرقية فعلا ، ودام النقاش ساعات متوالية ، حسب إعلان الشيخ العقبي في الجلسة العمومية ولكن المجلس الإداري – بما يشبه الإجماع – رفض توجيه أية برقية إلى حكومة فرنسا ، لأن حكومة فرنسا ، اضطهدت الأمة الجزائرية في دينها ولغتها وكرامتها وحرمتها من كل ما يتصل بالحقوق الإنسانية فضلا عن الوطنية .

وهنا أكد الإمام ابن باديس قولته الشهيرة : قلنا لفرنسا : إننا لسنا فرنسا .. ولسنا أعداء لفرنسا ... ولكن فرنسا تجاهلت أقوالنا وعطلت أعمالنا فالمدارس معلقة ، والمعلمون والمتعلمون مشردون مطاردون محاكمون ، والمساجد موصدة أبوابها في وجوه العلم والعلماء . وحقوق الأمة معطلة في أبسط مطالبها ... الخ .

والشيخ العقبي يقف في نفس الجلسة ويعلن أن هذه البرقية ليس فيها تملقا للحكومة ولا ضعفا واستجداء للطغاة والمستبدين من غلاة المعمرين .. ثم طالب بتلاوة نصّ البرقية في نصّها الفرنسي ونصّها العربي وتليت على الحاضرين باللغتين من طرف الأستاذ الأمين العمودي .. الخ .

أوردت هذه الخلاصة المختصرة جدا لظروف هذه «البرقية الملعونة» وبها ما فيها من مرارة وألم في نفسي حتى اليوم . ولكن لا حيلة في تجنب الحديث فيها ، وهي تطاردني وتلح في المطاردة كلما وجدت نفسي مضطرا إلى الحديث عنها ضمن الحديث عن هذه الفترة الحاسمة من تاريخ المقاومة والكفاح ، ولعل هذه الإشارة تكفي الآن لتحريك هذا الجرح الذي ما يزال داميا ، ولن يزال ، ما دام في الدنيا من لا يهنأ عيشا ، ولا يهدأ بالا ، ولا يطمئن لرغد

العيش ... إلا إذا حرك الجراح ونكأها لتنزف دما ، وهو ما وقع ويقع حتى اليوم .

* * *

واستقال الشيخ الطيب العقبي من المجلس الإداري لجمعية العلماء وهو متمسك برأيه أشد الاستمساك ، لأنه يراه الحق ويراه الصواب ، والشيخ العقبي لا يمالىء أحدا ـ مهما كان ـ فيما يراه الحق ، ولا يقرأ للحوادث والعواقب أي حساب ولا أية نتيجة ، إذا هو رأى الحق حقا والصواب صوابا .. فهو صامد صمود الرواسي في الالتزام به حتى ولو أدى ذلك إلى الخصام المرير .. وكذلك كان . إلا أن الشيخ العقبي حين استقال من المجلس الإداري لجمعية العلماء ـ لم يستقل من جمعية العلماء ، وقد أعلن أنه ما يزال ولن يزال عضوا كاملا في جمعية العلماء التي أصبح علما من من أعلامها أعطاها من نفسه وجهده وإخلاصه ما لم يعطه لأبيه وأمه وولده .. وسيبقى ـ ما بقي ـ عضوا عاملا فيها إلى أن يلقى الله ..

فليقل القائلون ما شاء لهم (الهوى) أن يقولوا ، وليكتب الكاتبون ما يريدون (وما يراد لهم) أن يكتبوه ، فإن ذلك لا يضير الشيخ العقبي في ذمته وكرامته شيئا فالتاريخ

لا يمين ولا يتأثر بالمين والبهتان كيفما كان مصدره وكيفما كانت ظروف العمل به ...

ولكي لا يكون كلامنا هذا من نوع الكلام (اللغو) الذي سمعناه وقرأناه ـ بحيل القراء من الشباب وطلبة العلم إلى المقال الذي كتبه الشيخ الطيب العقبي في العدد 22 من جريدة الوفاق التي تصدر آنذاك من وهران لصاحبها الأستاذ محمد السعيد الزاهري (رحمه الله) . وهو المقال الذي رد به على (حملة مفتعلة) تولى كبرها ـ حينذاك ـ من لم يسلم حتى اليوم ـ من اثمها وسوء منقلبها .

وقبل ذلك ومع ذلك ـ أثبت هنا أولا نصّ كلمة الاستقالة كما كتبها الشيخ العقبي ، ونشرت بالعدد 135 من جريدة البصائر بتاريخ 20 شعبان 1357 هـ ـ 14 أكتوبر 1938 م . وهذا نصها بالحرف :

كتاب استعفاء من عضوية الإدارة لجمعية العلماء :

الجزائر في غرة شعبان 1357 ـ 26 سبتمبر 1938

حضرة الأخ الكريم الأستاذ الجليل الشيخ عبد الحميد ابن باديس رئيس جمعيتنا المحترم .

أرجو منكم ـ بتأكيد ـ أن تعلموا لإخواني أعضاء جمعية العلماء المسلمين الجزائريين ـ استعفائي من العضوية في إدارتها وقوفا عند تصريحاتي الواضحة التي أدليت بها صبيحة يوم 24 سبتمبر الجاري في الإجتماع العام ، مع شكري للجميع على ما تفضلوا به علي مرة ثانية من تجديد الثقة بي وانتخابي لهذه العضوية التي أراني ـ بكل أسف ـ جد عاجز عن القيام بها بعد اليوم .

كما أرجو من الإخوان أن لا يتأثروا لهذا ، فقد أكدت لهم بالإيمان المغلظة إذ ذاك ، إني سأتخلى عن الإدارة إن هم أضاعوا أصواتهم في انتخابي لها ، وجعلوني مضطرا لإعلاني بهذا التخلي على صفحات الجرائد ، وقد أعذر من أنذر .

هذا مع وعدي لهم بأني سأبقى محتفظا لنفسي بحق العضو العامل في هذه الجمعية التي أنا من أول المؤمنين عندئذ الحق الذي سأبقى عليه ما بقيت ـ وبقيت المبادىء الخالدة ـ إلى آخر نفس من حياتي . وأؤكد لكل الإخوان أني وقفت هذا الموقف وأنا غير متأثر مطلقا بأي إيعاز من الإيعازات الحكومية ، ولا قاصد علم الله ـ وهو العليم بما في الضمائر المطلع على ما في الصدور ـ إلى تملق أية ناحية

إدارية .. ولكن شفقتي على البقية من تراث هذه الأمة ، وحرصي على المصلحة العامة ، مع تقديري للظروف والوضعية الحاضرة . كل أولئك حملني على الإصاخة لصوت ضميري فقط . وتلبيتي لنداء الواجب الإسلامي الإنساني الخطير غير آبه بما قيل وما عسى أن يقال .

ولعلكم يا جناب الرئيس تصادقونني على هذا وأنتم تعتقدون معي أن شر الناس من يخشى الناس ولا يخشى الله

وفي الختام ، تقبل مزيد احترامي لشخصكم الموقر ، ولمن لنظركم من بقية الإخوان ، صرف الله عنا وعنهم كل بلية وهوان ، والسلام عليكم ورحمة الله ، من المتوكل على ربه والمعتمد عليه وحده ، عبده : الطيب العقبي .

أما رد الشيخ الطيب العقبي على ما نشرته البصائر لأحد متجوليها الشباب آنذاك ، ونشرته جريدة الوفاق العدد 22 بتاريخ 23 فيفري تحت عنوان : الشيخ الطيب العقبي يتكلم فهو مقال لم يرد به الشيخ العقبي على الشاب الكاتب ، وإنما رد على الذين كانوا يحتشون وراءه ويحمون أنفسهم في المجابهة ، وهو المقال الذي رأينا الاحتفاظ به إلى وقت الحاجة اليه حتى لا نشارك في اثم إشاعة الفتنة عملا بالأثر : دعها فإنها منتنة !!

وأعلن الشيخ العقبي استقالته من المجلس الإداري — كما ورد في رسالته الآنفة الذكر ، وهو الأمر الذي تسبب في كثير من الإشاعات المغرضة انتشرت هنا وهناك . وأذاعها في تلك الفترة من كان يعمل لتفتيت وحدة الجمعية وبث الفتنة بينها وبين الأمة ، وهو ما تصدى له الإمام عبد الحميد ابن باديس في الرد عنه بالعدد 134 من جريدة البصائر آنذاك .. وهي نفس الإشاعات التي ما تزال تتردد حتى اليوم على أفواه وأقلام بعض الحاقدين المعاندين الذين يرفضون العدل والحق إذا كانا فيما يخالف أهواءهم ومطامحهم وسخائم نفوسهم ، وقد علقنا على بعضها في الماضي القريب ، وكشفنا عن نيات ومقاصد أصحابها ، ومازلنا نعاني من هذه الأزمة حتى اليوم

ان الفطرة السليمة حين تشك في أمر — كما قال الإمام الشهيد سيد قطب — تدعو الله أن يكشف لها عن وجه الحق ، وأن يهديها اليه ، دون أن تجد في هذا غضاضة ، ولكنها حين تفسد بالكبرياء الجامحة ، تأخذها العزة بالإثم حتى لتؤثر الهلاك والعذاب على أن تخضع للحق عندما يكشف لها واضحا لا ريب فيه .

وقضية الخلاف في الرأي بين أعضاء المجلس الإداري

لجمعية العلماء ، قصية خاصة لحالة خاصة ، انتهت بنهاية وقتها وظروفها الشاذة فما لهؤلاء القوم اليوم لا يكادون يفقهون ؟

وإذا كان لتلك الفترة الحرجة أناس لم يتحرجوا من القذف ـ وهو من الكبائر ـ ، ولم يتقوا الله فيما كتبوه ونشروه وأذاعوه من الباطل والإثم المبين .. فإن قرابة النصف قرن مضى على هذه الفترة من الزمن كافية لمراجعة النفوس في جموحها ، ومحاولة تصحيح الأخطاء في جنوحها ، غير أن هؤلاء الحاقدين المعاندين أبوا إلا أن يظهروا اليوم كما كانوا بالأمس ، وأن يزيدوا على إشاعة الفتنة من هذه الفاحشة رواية الأخبار الزائفة التي لا تثبت ببرهان ، كقولهم بتدخل الإدارة الفرنسية ـ بعد وفاة الإمام ابن باديس ـ لفرض رئاسة الشيخ الطيب العقبي لجمعية العلماء .

والزيف الواضح في أخبار ما روي أخيرا في هذا الأمر ، أن مبعوث الإدارة الفرنسية هو (الكومندان شون) مع أن (شون) هذا لم يكن آنذاك على هذه الدرجة العسكرية ، ولم يكن يشتغل في إدارة شون الأهالي بالولاية العامة الجزائرية ، وإنما كان بدرجة نقيب (كابتان) ويشتغل مساعدا مستشارا في مكتب عامل العمالة (الوالي) آنذاك ،

حيث بقي ملازما حتى حين نزول الحلفاء بالجزائر سنة 1942 وتجنده في الجيش الزاحف نحو ألمانيا المتقهقرة

ولو أن هذه الأخبار جاءت لتصحيح خطأ تاريخي وقع فيه ـ في زعمهم ـ مؤرخ جزائري كبير ـ لتحرت الصدق وشدت الحق ، وما الحق إلا ما كتبه العلماء بأنفسهم ونشروه بأقلامهم في صحفهم الوطنية والقومية ، وهو ما كتبه المشائخ الرواد : عبد الحميد بن باديس في العدد المذكور من البصائر ، والبشير الإبراهيمي والطيب العقبي ، في العدد 16 من جريدة الإصلاح ، بتاريخ فاتح ذي الحجة 1358 هـ 11 جانفي 1940 م ـ في الكلمة القيمة التي كتبها الشيخ الإبراهيمي وقدم لها الشيخ العقبي

ومما يزيد في زيف هذه الأخبار الواردة حول رئاسة جمعية العلماء بعد وفاة الإمام ابن باديس ، أن الشيخ العقبي يسند رئاسة الجمعية إلى الشيخ الإبراهيمي في هذا التقديم ، والشيخ ابن باديس ما يزال حيا يرأس جمعية العلماء .. فكيف يمكنه أن يرشح نفسه أو يقبل ترشيحه لرئاستها بعد وفاة ابن باديس ؟ ألم يكن يعلم أن اعترافه الأول برئاسة الإبراهيمي يدين ترشيحه لرئاستها ؟ ما هذا المنطق المعكوس الذي لا صدق فيه ولا نزاهة فيه ؟ هذا

من جهة ، ومن جهة أخرى ، فالذين يروون هذه الأخبار الرائجة ويعتمدون على ذاكرتهم فيها . يزعمون أنهم يخدمون مبدأ الجمعية في هذه القضية التاريخية ، ويعيدون الحق إلى أهله وهو «شرعية» رئاسة الجمعية بعد وفاة رئيسها الشرعي الأول ، وابتلاء رئيسها الشرعي الثاني بالنفي .. ونسي هؤلاء وامحت من ذاكرتهم الحقيقة الناصعة وهي أنهم أساءوا للرئيسين معا ، قبل أن يسيئوا إلى الشيخ الطيب العقبي بهذه الفرية التي لا أساس لها البتة ، ذلك أن الشيخ العقبي بموقفه الصارم في قضية البرقية وقضية الاستقالة المعلنة في الصحف المحلية ـ يعلم أنه قد استهدف إلى عدد من الإشاعات والأقاويل والتأويلات .. أما الشيخان الرئيسان فليس في أمرهما أي شبهة ، وكلاهما رئيس ونائب رئيس ، ومن الطبيعي أن ينوب نائب الرئيس عن الرئيس حال غيابه أو وفاته ، وزيادة على ذلك فالأخبار المتواترة الصحة أن ابن باديس أوصى بالخلافة لنائبه الإبراهيمي قبل وفاته

فما معنى اجتماع (بعض) أعضاء الجمعية في قسنطينة لحضور جنازة الإمام الرئيس واتفاقهم على إسناد الرئاسة لنائب الرئيس الذي هو الرئيس الشرعي بشرعية القانون وتوصية الرئيس الراحل ؟

أليست أخبار اليوم حول هذه الخلافة الشرعية في رئاسة الجمعية مدعاة للشك والشبهة ، لا سيما والجميع رحلوا وتحللت عظامهم في قبورهم وصاروا إلى أصلهم الـتراب ؟؟

ثم ، ما هذه الأخبار التي تتردد بين القراء من شبابنا ويكتبها اليوم بعض شيوخنا المسنين ، وينشرها الناشرون في معارض التاريخ ؟ ألم يكن هؤلاء الشيوخ اليوم شبابا وكهولا بالأمس ، حين كان هؤلاء الرواد أحياء بيننا ، فما الذي منعهم من كتابة ما كتبوا اليوم من هذا «التخريف» المزيف للحقائق ، وأصحابها أحياء يستطيعون أن يردوا عن أنفسهم التهم أو يعترفوا بها معلنين توبتهم ؟

وقسما ، لو أن شيخنا العظيم (الإبراهيمي) ما يزال حيا بيننا ، لما تردد اليوم في تكذيبهم بأقواله ، كما لم يتردد بالأمس في الكشف عن غميزة كل من أراد النيل من صفاء وطهارة ونزاهة مبادىء ورجال الجمعية الأبرار ، ومنهم الشيخ العقبي في المقدمة ! !

وإذا كان الخلاف في الرأي بين الأستاذين الإبراهيمي والعقبي ، وإذا كان تآمر المغرضين والمتربصين الدوائر منا ومن غيرنا ـ قد وقفا دون اتفاقهما واجتماعهما في صعيد

واحد في مسيرة النهضة الوطنية والحركة الإصلاحية أثناء وبعد الحرب العالمية الثانية ، فإنهما لم يفترقا إلا ليجتمعا ، ولم يبتعدا إلا ليتقاربا . وما مواقفهما معا (متفقين مجتمعين) في قضايا : فصل الدين عن الدولة ، والصيام والإفطار ، ولجنة إعانة فلسطين ، التي تكونت في سنة 1948 ـ إلا دليل قاطع على أنهما متفقان في المبدإ والغاية ، وإن تفرقا أحيانا في المنهج والطريقة ، وأنهما معا يراقبان الله في اجتهادهما . ويستهدفان المصلحة العليا في مسيرتهما ، وكفاهما ذلك ذخرا عند ربهما وإعزازا وتكريما في الخلف من أبنائهما وأحفادهما .

فليتق الله شيوخنا وليراقبوا سطوة الله وغضبه فيما يكتبون ويقولون عن الماضين الراحلين من هؤلاء العلماء الأبرار ، وأنهم إن فعلوا أدركوا أن في مثل أقوالهم هذه خطئا تاريخيا وأخلاقيا ووطنيا ستجتره الأيام بين ألسنة وأقلام أبنائنا حينا من الدهر . وسيكون لأبنائنا عذرهم عند ربهم وعند الناس في رواية الخطأ صوابا ... أما شيوخنا الراوون والمعتمدون على مفكراتهم التي علاها الغبار ـ فإن الوزر سيلاحقهم والإثم سيكدر عليهم الصفاء في طريقهم إلى ربهم . فليتقوا الله وليقولوا قولا سديدا . أما الشيخ العقبي فهيهات أن ينالوا من صدقه مع ربه ومع الناس .

جريدة «الإصلاح» في ظروف الحرب العالمية :

وقال الناس بعد ذلك ما أرادوا أن يقولوا ، ولكن الشيخ العقبي بقي شامخا بعقيدته السلفية . يدعو إلى الله على بصيرة . كما بقي مستمسكا برأيه لأنه يراه الحق الذي لا محيد عنه .

ثم جاءت ظروف الحرب العالمية الثانية ، وتعطلت الصحف الملية وفي المقدمة صحيفة «البصائر» ومجلة «الشهاب» ، وبدا له أن الحق سكت صوته بسكوت ألسنته ، والحق ـ في نظره ونظر الملتزمين به ـ لا يسكت أبدا ، فهو لا يعدم وسائله في الجهر والإعلان مهما كانت ظروف الحياة .. وقد يكون الشيخ العقبي على خطإ فيما رآه ، وقد يكون في خطئه هذا «جرح في التعديل» ، ولكن الذي يعتقد أن ما يراه هو الحق والصواب بحجته ـ لا يكون إلا حيث وضعه «العدل» بين المجتهدين المخطئين .. فهل قال العقلاء من الناس غير هذا ؟ قد يكون .. ولكن كيف ؟ والقول بغير دليل لا يثبت الحق منه ؟ هذه قاعدة منطقية وأصولية لا تقبل الرد . فلم يبق إذن إلا (فاحشة الإشاعات) يروجها بعض من لا خلاق لهم ، وينسبونها إلى الأبرار الأحرار الذين اختلفوا مع الشيخ العقبي في الرأي ، ولكنهم

لم يختلفوا ـ أبداً ـ في أنه نزيه في رأيه وإن أخطأ ، وصادق في موقفه مع نفسه ومع ربه واضح فيه ، والأدلة في ذلك متوفرة ..

فمن من الناس يجرؤ اليوم على تحدّي الرأي المجمع عليه في كل العالم ـ بإدانة زعيم النازية «هتلر» فيما دبره وخربه ودمره ؟؟!

وإذا كان هذا غير ممكن بالمرة ـ والعالم اليوم يشهد مذابح ومجازر وأفران ، يذهب ضحيتهما آلاف الأبرياء كل يوم ـ فلماذا إذن هذه الزوبعة في فنجان ، حول إصدار الشيخ العقبي لجريدة «الإصلاح» ، في أيام الحرب العالمية الثانية ، ونشرها لأخبار المعارك ضد هذا الطاغية المعتوه ؟!

ثم إن جريدة الإصلاح لهذه الفترة ما تزال اليوم بين أيدينا بكل أعدادها ، فلنراجعها ، ولننظر فيها ما كان يكتبه الشيخ العقبي فيها ، ولنتأمل البياض في أعمدتها الكثيرة ، وليس فيه إلا كلمة : «قلم المراقبة» لماذا حذفته المراقبة من كلام الشيخ ، بحكم حالة الحرب وقانون الطوارئ» ؟..

ورغم هذا فلم يستكمل البلاء بعد ـ كل حلقاته على الشيخ الجليل فلابد إذن من متابعته إلى النهاية ، وهو في مصارعته للأحداث ، وفي مصابرته للخطوب والكروب والأشجان ـ

إنما يقف حيث يقف الصدّيقون والمجاهدون الذين هيأهم الله ليكونوا في هذه الحياة «المثل الأعلى» ! !

فليقل الناس إذن ما وجدوا إلى القول سبيلا ـ وقد فعلوا وما زالوا يفعلون ـ ولكن أحدهم لم يستطع ولن يستطيع أن ينال من إيمان الشيخ العقبي ، ومن نزاهته ، وعفته ، وصحة عقيدته ، وصبره على المكاره ، وجلده في مجابهة الأحداث ، وأمانته مع ربه ، وصدقه في دعوته إلى دينه ، ثم ... ثم في إخلاصه ووفائه لكل الذين ناصروه وآزروه وكانوا معه في حال من الأحوال(1).

لقد أبّن الشيخ العقبي صديقه الفاضل الشيخ (السعيد أبو يعلي) ـ والذي كان يلقبه : «شيخ الشباب ، وشاب

(1) فمن من الناس العارفين الفضلاء ـ من ينسى مواقف الشيخ العقبي في «الوفاء» لإخوانه وأصدقائه ؟ ومن منهم ينسى موقفه المشرف حين أعلنت الحكومة الفرنسية في الجزائر سنة 1944 بأنها قد ألغت قرارها التعسفي في منعه ومنع العلماء الأحرار من التدريس في المساجد : وهو القرار المعروف بقرار (ميشال) سنة 1933 م فقال : أنا لا أعود إلى المساجد حتى تعود «اللجنة الدينية» برئاسة السيد محمود ابن صيام التي ألغتها الحكومة يوم أن منعتنا من المساجد ، ورضخت الحكومة لشرط الشيخ العقبي فحلت اللجنة الدينية الموجودة برئاسة الأستاذ الشيخ أحمد ابن زكري ، وأعادت اللجنة القديمة التي حلتها الحكومة في سنة 1933 لأنها تضامنت مع الشيخ العقبي واحتجت على قرار منعه .. فتلك هي قمة الوفاء التي كادت أن تنعدم من الناس ، ولكنها عند العقبي وأمثاله ـ باقية لا تريم

الشيوخ» ـ فقال في كلمة تأبينه على جثمانه في المقبرة :
لقد تعارفنا على الله وفي سبيل الدعوة إلى دين الله الحق ، وتآخينا في الله ، وكنا معا في ميدان حركة الإصلاح الديني وها أن فراقنا اليوم يقع في رحاب الله ، فهل يمكنني أن أنطلع إلى الله ضارعا أن يتلقاك بمثل ما يتلقى به عباده المصلحين الصادقين ، حتى إذا آن الأجل ، فادني إليك وفسح لي مكانا معك بين الأنبياء والمرسلين والشهداء والصالحين المصلحين وحسن أولئك رفيقا .

* * *

الشيخ الطيب العقبي وقضية الإصلاحات :

ويمضي شريط الأحداث في صوره المتلاحقة لتستكمل شدة بلائها على شخصية الشيخ العقبي ، ولتجعل منه هذا المثال النادر من الصمود .. بعد الحرب العالمية ، وبعد محنة الأمة في حوادث ماي 1945 ـ رأت الحكومة الفرنسية ضرورة التعجيل بإصلاحاتها المؤجلة بمحرقة وتعنت الاستعمار واقطابه وطواغيته ، فقامت تعلن تكوين لجان مختلفة لهذه الإصلاحات ـ ومنها القضية الدينية التي طالبت بها جمعية العلماء منذ تأسيسها ـ ودعي إلى هذه اللجان مختلف الهيئات والشخصيات ، ومنها الشيخ الطيب العقبي ، وفي هذه المرة

ـ كما في كل مرة ـ بدا الشيخ العقبي سمحا وفيا إلى أقصى درجات الصفا والوفاء ، فضم صوته إلى صوت الأحرار من علمائنا ، وعلى رأسهم هذه المرة العلامة الشيخ البشير الإبراهيمي (الرئيس الشرعي لجمعية العلماء آنذاك) ، حيث وافق على عريضة الإصلاحات التي عرضتها جمعية العلماء في قضية فصل الدين الإسلامي عن الدولة الفرنسية اللائكية ـ بكل تفاصيلها .. ولكن القضية حين وصلت إلى موضوع فتح المساجد في وجوه العلماء الأحرار ـ بدت بوادر الاختلاف تظهر .. ولم الإختلاف ؟

ان لهذا الإختلاف جانبين ، كلاهما حافز ، وكلاهما شديد ، بالنسبة للقضية ككل .

إن فتح المساجد في وجوه العلماء الأحرار ـ يعني في نظر الشيخ العقبي ، أمرا يخصه هو بالدرجة الأولى ، ذلك لأن قرار المنع الذي صدر من والي ولاية الجزائر (عامل العمالة كما يسمى في ذلك الوقت) ـ ويحمل اسم صاحبه (ميشال) ـ كان من أجل منع الشيخ الطيب العقبي من إلقاء دروسه في (الجمع الجديد) يوم الجمعة من كل أسبوع
هذا هو الواقع ، وتلك هي الحقيقة ، وقد وقع هذا في سنة 1933 ، وهو القرار المعروف بقرار ميشال .. والشيخ

العقبي يرى ضرورة العودة إلى كل النظام القديم بدءا بإعادة اللجنة الدينية القديمة ورئيسها لتصامهما مع الشيخ حين منع من التدريس في المساجد .

وتمسك الشيخ العقبي برأيه هنا ، فكان ما أراد من عودة اللجنة الدينية القديمة مع رئيسها السيد محمود بن صيام وعاد هو إلى المساجد بدروسه الدورية ، فكان يوزع هذه الدروس بين المسجدين (الجامع الكبير) و (الجامع الجديد) بالعاصمة .

وقد كون لنفسه بهذا الموقف خصوما جددا من أعضاء اللجنة الدينية برئاسة الأستاذ أحمد بن زكري (رحمه الله) ، وغيرهما ممن في السلك الديني آنذاك من المفتين والقضاة ، والأئمة .

وهذا رأي الشيخ الطيب العقبي في هذه القضية .. أما جمعية العلماء وعلى رئاستها الشيخ البشير الإبراهيمي فرأيها أن القرار كله ـ ذر للرماد في الأعين ، ذلك أن مسألة فصل (الدين عن الدولة) ما هي إلا قضية واحدة في ملف واحد يجب أن تقبل كلها ، أو ترفض كلها .

وهنا بدأ الخلاف من جديد ، ولكنه خلاف لم يتسم بالعنف ، غير أنه أخذ طريقه المنحرف عن الوحدة المنشودة ..

ولولا وجود بعض المشاغبين في الصف ، وبعض المغرضين المدسوسين على الهامش ، ولولا وقوف الاستعمار بكيده من خلف ـ لالتأم الجمع من جديد في عهد جديد ، ولأصبح الشيخ العقبي في طريق هذه الوحدة ، كما كان أيام عز النهضة ومجدها .. ولكن الزمن قد تغير ، والعهد القديم ـ ما قبل الحرب ـ لم يعد ملائما لمجابهة متطلبات العهد الجديـد

لكـل شـيء إذا مـا تـم نقصـان
فـلا يُغَرُّ بطيـب العيش إنسـان !!

* * *

وإذا كانت الأحداث وظروفها القاسية لم تستطع أن تنال من عزيمة الشيخ الطيب العقبي ولا من قوة إيمانه ، ولا من صلابته فيما يراه الحق ... فإن الأمراض والعلل التي اجتاحت جسمه النحيل الضعيف لم يكن في مقدوره مقاومتها ، فاستسلم لها مضطرا ، ولازم بيته سنوات عديدة إلى حين الأجل المحتوم . فسبحان الذي يرث الأرض ومن عليها وهو خير الوارثين .

وثـائـق ، ونمـاذج :

وفي هذا القسم من هذا الكتاب ـ أضع بين أيدي

القراء من شبابنا هذه الوثائق من الصور والنماذج الشعرية والنثرية ، لا لتأكيد غرضنا ومناقشتنا للأحداث ومواقعها وظروفها ، ولكن لأعطي هذا النوع من القراء الشباب فرصة التأمل فيما يقرأون من تاريخ هذه الفترة الزمنية التي كانت وعاء للنهضة الوطنية والثورة الفكرية والنضال من أجل رفع الخمول والجمود والجهل بين صفوف وطبقات الأمة ، وليعلموا بعد ذلك أن هؤلاء العلماء في (جمعية العلماء) إنما هم صفوة الصّفوة من هذه الأمة المسلمة ، جاهدوا في الله حق جهاده ، وآثروا الآخرة على الأولى فبذلوا من ذات نفوسهم كل شيء ، ولم يطلبوا لقاء ذلك أي شيء من عرض الدنيا الزائل ، وتلك خلة الأصفياء في كل زمان ومكان ، وطوبى لمن وعظ بغيره .

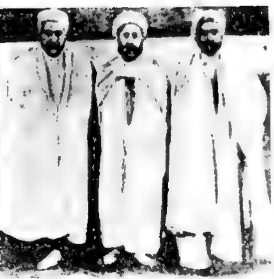
الصّـــور

نعتذر على النقص في وضوح الصور لقدمها ولكونها مأخوذة من صحف ذلك العهد .



الشيخ الطيب العقبي

العضو الاداري لجمعية العلماء منذ تأسيسها سنة 1931
حتى خروجه سنة 1938
والعضو العامل في صفوفها منذ استعفائه من اداريها
حتى حين وفاته سنة 1960



الشيخ الطيب العقبي والشيخ محمد البشير الإبراهيمي وبينهما الشيخ عبد الحميد بن باديس أخذت لهم هذه الصورة في وفد جمعية العلماء في المؤتمر الإسلامي الجزائري سنة 1936

الشيخ الطيب العقبي والسيد عباس التركي محمد وعلي

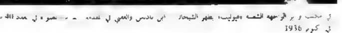


عكاشة ، قيل له قل ، فقال !
وامام قاضي البحث ، وفي مواجهة الشيخ العقبي أدركته خشية الله فكذّب الإتهام



الشيخ الطيب العقبي وصاحبه السيد عباس التركي وبعض المتهمين في قاعة المحكمة





في مكتب [illegible] الوجهه الشعبه [illegible] بعضهم الشيخان ابن باديس والعقبي في [illegible] في [illegible] عبد الله [illegible]
في [illegible] 1936



شاعر النهضة الوطنية في مواكب جمعية العلماء وأستاذ جيل كامل من الشباب آنذاك

صحف النضال

الصحف الوطنية في تلك الفترة الزمنية ، كانت من أهم الوسائل لمحاربة الضلال في العقيدة ، والإنحراف في المبادىء . ورسم معالم الطريق إلى النهضة الصحيحة المبنية على الأسس المتينة من وحدة الأمة الموحدة بدين الله الحق . وقد أشار إلى هذا المعنى كل العلماء في مقالاتهم وفي مقدمتهم الإمام ابن باديس حين بين مراحل النهضة الوطنية في مقاله المنشور بجريدة السنة العدد الثالث بتاريخ 29 ذي الحجة 1351 هـ ـ 24 أفريل 1933 م ومنهم الشيخ العقبي في مقالاته بنفس الجريدة تحت عنوان : الأمة في حاجة إلى الإصلاح ، ولا يقدر على إصلاحها إلا العلماء ! !

وقبل ذلك وبعده ـ كانت الصّحف الملية والوطنية تصدر تباعا ، لتعمل في حاجة الأمة إلى الإصلاح ، ومنها

جريدتا «المنتقد» و«الشهاب» ، حيث كان العلماء المصلحون ينشرون مقالاتهم المتوالية والمتواصلة ، وليس لهم من مقصد فيما كانوا يكتبون وينشرون إلا خدمة الدين في عقيدته الصحيحة ، وخدمة الأمة في توجيهها إلى وسائل وأسباب نهضتها من ركودها ، واندفاعها بوعي نحو أهدافها .

والأمة المسلمة في الجزائر ، كما في غيرها من الأوطان — ابتليت في دينها ودنياها ، وتبدل صفاؤها كدرا ، وعزتها مهانة ، فقام هؤلاء العلماء — وهم ورثة الأنبياء — بالدعوة إلى دين الله الحق ، واستنهاض الهمم الراكدة ، فلم يرق ذلك للطغاة البغاة ، فراحوا يكيلون كيدهم ويحيكون مؤامراتهم ، فألّبوا عليهم — منهم — إخوانهم المبتدعين في الدين ، الحاملين في الدنيا ، من رجال ومشائخ الطرق الضالة المضلة . وهو الأمر الذي وقع ضد حملات الشيخ الطيب العقبي الإصلاحية في جريدتي المنتقد والشهاب ، وكان السبب الأول في البيانين التاليين اللذين أشرنا اليهما في القسم الماضي من هذا الكتاب :

الشهاب

لسان الشباب الناهض بالقطر الجزائري

في سبيل الوفاق والتفاهم(1) :

كانت مسألة إصلاح الزوايا أثارت حربا إقليمية شعواء بين كتّاب «حزب الإصلاح الديني»(2) والكتاب «المحافظين» وكثيرا ما بلغ الأمر ببعض الكتّاب إلى مشادة عنيفة .

---

(1) جريدة الشهاب : العدد 19 في 11 رمضان 1344 هـ/25 مارس 1926 م

(2) حزب الإصلاح الديني : اسم لمشروع دعا اليه الأستاذ الإمام منذ العدد الأول من جريدة الشهاب ، ووافق عليه الكثير من علماء تلك الفترة » =

وقد كانت هذه الصحيفة نشرت للفريقين وان كان أكثر ما نشرته لأنصارها الأولين .

ولئن كانت تلك المصادمات ثقيلة على بعض النفوس من جهة فلقد كانت مفيدة قطعا بما أجلته من الحقائق التي سطع نورها عند احتكاك الأفكار ، والحقيقة بنت البحث كما يقولون

نعم لا تزال كثير من الحقائق محجوبة عن كثير من العيون بغبار المعركة وعثير الجدال ، ولكن عند انتهاء المعمعة وهدوء ريح الخلاف واطمئنان الخواطر ــ ترجع العقول فتنظر في سكون وصفاء فتبصر الحقيقة حينئذ ظاهرة كالشمس في رابعة النهار .

قد نوقف السادة الكتاب المحافظون «بإيقاف رصيفتنا والنجاح» الغراء لهم ، وها نحن نواصلها على ذلك ونرجو من حضرات كتّاب «حزب الإصلاح الديني» أن يقفوا مشكورين على ما أبدوه من الصّراحة في الرأي والمقارعة بالحجة والقوة في الحق ، فهم ــ ولا فخر ــ أول من ظهر

=وهو عنوان يجمع كل المصلحين الفضيين والمشروع قديم في ذهن الإمام ابن باديس ، أنظر كلمة تصدير الشيخ البشير الإبراهيمي لكتاب سجل مؤتمر جمعية العلماء المطبوع بقسنطينة سنة 1937

من الأمة الجزائرية مستكملا لهذه الصّفات ، يقفوا لتنتهي المعركة فتصفو الصّدور . وعساها حينئذ أن تسعى للوفق والتفاهم ، ثم لنا موضوعات كثيرة في الإصلاح العام نريد من حضرات الكتاب طرقها .

لنا مجتنيات مما تنتجه عقول الكتاب في الكتب والصحف والمجلات نريد أن نفيد الأمة بها

لنا شؤون عالمية نريد أن نطلع الأمة عليها . وهذه اليوم أهم من مسألة إصلاح الزوايا التي أخذت حقها فوجب تركها والاشتغال بما هو أهم منها .

ورجاؤنا من حملة الأقلام أن يحل هذا الرأي منهم محل الاستحسان .

الشهاب لسان الشباب الناهض بالقطر الجزائري

في سبيل الدعوة والإرشاد أيضا .. [1]

كما سبق نشرنا مقالا تحت عنوان «في سبيل الوفاق والتفاهم» أردنا به جمع الكتّاب على نقطة خاصة من الإصلاح ، وإيقاف ذلك التيار القوي من الكتابة الإصلاحية ، ظنا منا أن هذا يكون له تأثير حسن في قلوب قراء وكتّاب جريدة (الشهاب) . لكن أنتجت هذه الكتابة خلاف ما نظن فقد فهمها غالب الكتّاب الإصلاحيين

(1) نقلت هذه الكلمة من ورقات من جريدة «الشهاب» كانت ضمن مجموعة جريدة «المنتقد» في المكتبة الوطنية بباريس مسجلة هنالك تحت رقم (94109) والورقات من عدد تنقص منه 8 صفحات الأولى ، ولكن هذا البيان كان كاملا في الورقات الباقية

ـ وفي مقدمتهم العلامة المصلح الشيخ الطيب العقبي ـ تحجيرا تاما ومنعا صريحا لكل كتابة في الإصلاح الديني أو ما حام حول هذا ، ورفعا لكل ما عسى أن يتخذوه حجة لهم في قطع الكتابة في جريدتنا الشهاب نشرنا مقالا تحت عنوان في سبيل الدعوة والإرشاد طلبنا فيه من كتّابنا الكرام الرجوع إلى الكتابة في نقد الدجل والدجالين وأفهمناهم أننا لم نكن ـ ولن نكون لنحجر على كتّابنا الخوض في نقد أعمال الطرقيين ، إنما وقفنا ذلك التيار القوي حيث رأينا أنه بلغ حده ووصل إلى منتهاه ، ورجونا من بعد ذلك أن توافينا منهم كتاباتهم التي اعتدناها منهم في أول الأمر .

لكن هاته الكتابة ـ ويا للأسف لم تكن لتروق لدى من تعوّد الصراحة في القول والبيان في الحجة من كتّابنا المصلحين ، وعلى الأخص ذلك الرجل الصريح في لهجته الثابت في مبدئه علامتنا الشيخ الطيب العقبي ـ فإنه لم يرها كافية كفاية تامة وصريحة حقة في رفع مقال ، في سبيل الوفاق والتفاهم ، ونحن نؤكد لحضرته ولكل من كان على شاكلته أننا أضربنا على ذلك المقال الذي زال ، بزوال مااقتضاه من الأحوال . ورجعنا إلى خطتنا القديمة التي أسسنا الجريدة من أجلها بدون تحفظ وبدون استثناء ، فليعلم هذا كل مصلح كريم وكاتب قديم ، وليأخذ

هاته الكلمات منا ميثاقا صحيحا وعهدا صادقا إننا نوالي جهودنا وكتاباتنا في موضوع الإصلاح الديني ونقبل كل كتابة ترد علينا في هذا الموضوع الإصلاحي فلا يحوجنا إخواننا الإصلاحيون إلى كتابة غير هذا ، وحسبنا الله ونعم الوكيـل . *

(*) هذا كلام امام المصلحين ورائد العلماء المجددين : عبد الحميد بن باديس ـ في جريدته وجريدة المصلحين (الشهاب) في قضية (مقاضبة) الشيخ العقبي له وللجريدة . والمقالة تزيد وتؤكد رواية الأستاذ الشاعر محمد العيد التي أوردناها آنفا فهل بقي هناك مجال لتأويل المتأولين وإشاعة المتقولين ؟ «فليحذر المخالفون عن أمره ان تصيبهم فتنة او يصيبهم عذاب أليم» (قرآن كريم)

الشعر

نماذج من شعر الشيخ العقبي ونثره

مواهب الشيخ الطيب العقبي لا تكاد تنحصر في موضوع ، فهو في كل ميدان (فارس الميدان) .

وشأنه في شعره كشأنه في نثره ـ يدعو إلى المكارم والمحامد لا يحيد عن الحق والعدل ، ولا يأبه للظلم والعدوان .

وشعره شعر العلماء المصلحين ، وهو حين يساجل فيه ، يأتي بالدرر والغرر من محفوظاته ومنظوماته .

وقد اخترنا له من نماذج شعره في هذا الباب قصيدتين تاريخيتين ، الأولى بعثها كتحية إلى جريدة «الجزائر» للصحافي الجزائري الشهير الأستاذ السعيد الزاهري ، ونشرت في كتاب «شعراء الجزائر» . والثانية بعثها كتهنئة للإمام عبد الحميد بن باديس إثر نجاحه في محاولة الاغتيال المدبر

صده . وكلتاهما مبعوثتان من مدينة بسكرة محل إقامة الشيخ العقبي بعد عودته إلى الوطن .

أما نثره ، فهو مجموعة مقالات وبحوث ودراسات ومحاضرات ، وغيرها ، كان ينشرها في الصحف الملية داخل الوطن . وكلها مصبوبة في قالب الحركة الإصلاحية الدينية التي كان قطبا من أقطاب نهضتها العارمة .

وقد اخترنا من نثره هذا : محاضرة ألقاها في نادي الترقي وثلاث مقالات نشرت كلها في صحيفة الشهاب ، وقد كان بودي أن أنشر ولو موضوعا واحدا من دروسه كنموذج لأسلوبه في الدعوة ، ولكن ظروف الكتاب تقتضينا الإيجاز . ولعل الظروف التي عجلت بهذا الكتاب ضمن هذه الموسوعة سيسمحنا مثلها في المستقبل القريب فسحر ما عجزنا عليه من نشر كل تراث الشيخ العقبي وغيره من علمائنا الأبرار الأحرار . تجميعا للمادة الأولى من تاريخ النضال الإسلامي العربي في هذا الوطن المسلم العربي .

قصيدته لجريدة «الجزائر»

رد التحية فرض ... *

حيـي الجزائـر مـا دامـت تحيينـا
وانهـض بشعـب قصـى في جهلـه حينـا

واعمـل لخير بلاد طالمـا هضمـت
حقوقهـا واتخـذ مـن حبهـا دينـا

وسـر حثيثـا عـلى تلـك الطريق إلى
حيث المعارف حيث العلـم يهدينـا

تبث الصحافـة لـو تسدي الأكـف لهـا
لا شيء عنهـا مـدى الأيـام يثنينـا

(*) قال يحيي جريدة (الجزائر) ويرد تحيتها التي حيت بها الجزائر ، وهي القصيدة التي نشرتها في العدد الأول منها تحت عنوان (الجزائر تحيي الجزائر) وقد تعطل سير الجريدة قبل أن تقرأ (القصيدة) في العدد المذكور . ثم نشرت في كتاب «شعراء الجزائر في العصر الحاضر» الجزء الأول ، المطبوع في تونس سنة 1926 ـ كما تقدم في ترجمة الشيخ العقبي

مرحى لها ولمن قاموا بواجبها ! !

يدعوننا علنا للحق مصغينا

أخزى الإله أناسا لا خلاق لهم

زعانفا بخسيس العيش يرضونا

قد حرموها ولم يدروا لحرمتها

حقا لجهلهم بل كيف يدرونا

هم شر كل الورى تعسا لرائدهم

ولست أحسبهم إلا شياطينا

الله وفقكم . قمتم بواجبكم

حققتم ما رآه الغير تخمينا

ناشدتك الله لا تبغي بها بدلا !

ولا تلبج خطة في العسف تردينا

واذكر حديث جدود قبلنا سلفوا

عاك بالعلم بعد الجهل تحيينا

وقف بنا نندب الأطلال بعدهم

فالشعب قر بما أبقوا له عينا

(1) قرت العين قرا ، مكسور العين ومفتوحها ، قرة بضم القاف وفتحها وقرورة : بردت سرورا وجف دمعها ورأت ما كانت متشوقة إليه ، فهو قرير العين ، وعينه قريرة

ذاك التراث وهذا الفيء مقتسم

وبجهلهم صار أمرا ليس يعنينا(1)

وهم أولئك من قد قال شاعرهم

وقوله الحق إيضاحا وتبيينا

إنا لنرخص يوم الروع أنفسنا

ولو نسامو بها في الأمن أغلينا(2)

أحكم برأيك ما قد أبرموه لنا

وحل عقدا عقدناه بأيدينا

لم يبق بعدهم شيء نلوذ به

(إلا بقية دمع في مآقينا) !

وان تسل كيف كنا ثم مال بنا

ريب الزمان فحذ ما قيل تضمينا

(كنا قلادة جيد الدهر وانفرطت

وفي يمين العلا كنا رياحينا)

(1) الفيء : الغنيمة والخراج ، تاريخ الأمة هو مرآتها التي ترى فيه ماضيها المجيد لتبني عليه شيئا جديدا ، وهو النبراس الذي ينير السبل للناهضين في ظلمات الحياة . وان للجزائر تاريخا ولكن بلا رجال ، فيا أسفاه على عصر ذهبي ذهب ! !

(2) البيت من قصيدة ولعلها في ديوان الحماسة لأبي تمام مطلعها

انا محيوك يا سلمى فحيينا * وان سقيت كرام الناس فاسقينا

(كانت منازلنا في العز شامخة
لا تشرق الشمس إلا في مغانينا)
(وكان اقصى منى نهر المجرة لو
من مائه مزجت أقداح ساقينا)
(والشهب لو أنها كانت مسخرة
لرجم من كان يبدو من أعادينا)
(فلم نزل وظروف الدهر ترمقنا
شزرا وتخدعنا الدنيا وتلهينا)
(حتى غدونا ولا جاه ولا نشب
ولا صديق ولا خل يواسينا)
كم أمة أصبحت تعلو بعزتها
كانت لنيل العطا قدما ترجينا ؟
وكم قبيل أتى يبغي معارفنا
وكم جموع لها كانت توافينا ؟؟
كانوا يؤمون روض العلم دانية
قطوفه ومعين الفضل يبغونا
كنا الشيوخ وكانوا من تلامذنا
ردوا علينا الذي من قبل تعطونا !
ردوا علينا علوما لو بها بخلت
جدودنا كنتم للبهم ترعونا ! ..

يا صاحب الشرف الأسمى وحاميه
جرد حسامك واعمل حازما فينا !
بالجد يبني بناة المجد صرحهم
ولم أجد طالبا للمجد مغبونا
هي الحياة فسر فيها على حذر
واصعد بقومك واصدع كالمحقينا
ونادنا إننا ملت مضاجعنا
منا الحروب ومل القوم نادينا
أخشى وربك ان أبديت خافية
نعشر الرميم وما قد كان مدفونا
كم قربوا من بعيد في وعودهم
ولقنوا الكل من غي أفانينا ؟
كم أرهقونا وسيف البغي منصلت
وأوسعونا هوانا من تجافينا ؟؟
كانوا العداة وقد أغضوا على وهن
واليوم صاروا على عز مواليتا
ومن يرد قضاه الله منبرما
والروح قد بلغت منا تراقينا
ظنوا السماحة فيما خولوه لنا
مكارما جاوزت حد الموآلينا

لبيك ! لبيك ! ما أسمعت ذا أذن
وما قضيت حقوق الشعب تعليما
لا بر من يدعي في العلم سابقة
ولم يقم بدروس العلم تمرينا
تبارك الله ذاك العز صبركم
حماة يقتنا أنصار وادينا
بالله يا منشئ الإصلاح ان عرضت
لكم سوانح من فكر تواتينا
عرج على قطرنا وانظر لحالته
فحاله اليوم بين الناس تحزينا
عص العلى مجدنا قلما وقد عملوا
لنيل ما زرع الاباء تلقينا
حتى سقونا حميما لا مساغ له
وجرعوا الكسل رقوما وغسلينا
بالأمس كنا ملوكا في عروشهم
واليوم صار قصيّ الدار يقصينا ! !
هذا جزاء الأولى عن دينهم صدعوا
وأعرضوا عن حدود الله ماثينا
فلا وربك ما خان الأمين ولا
ضل الخبير ولا مان المحوينا !

ب لهف نفسي ولهف العالمين معي
ضاع الزمان . وما أجدى تأسينا !
يا معشر القوم هبوا من سباتكم
طال الزمان وكم عنى معينا ! ! ؟
ولا سميع لنا منكم وكلكم
أصبحتم لقدم المجد ناسين
ما هكذا شيم العرب الكرام ولا
هم قبلنا ولدوا الحمق المحابينا !
هبوا بني وطني من نوم غفلتكم
حل المصاب وخطب الدهر يرمينا .. !
تعلموا العلم وامشوا في مناكبها
وجانبوا كسلا أودى بمصحب !
وراحموا العرب في الدنيا ولذتها
وجددوا عصر عزٍّ في تعاليب !
م كان قط حرام في شريعتنا
سير بأوطاننا فيما يرقّينا
هذي بلادكم ترنو لنهضتكم
وكم شروبكم لازال محروب
لا تهملوا خدمة الأوطان واتّحدوا
فاتحادكم الأوطان تدنينا

أوطـانـنـا حـب فـرض نـقـدمـه
لا شـيء عـن حبهـا في الناس يثنينا !
عنهـا رضينـا ولـن نـرضـى بحطتهـا
وليـس غيـر عـلا الأوطـان يرضينـا
فيـم التمـادي على عمياء مهلكـة
هـدت مـن المجـد مـا بنيـه بانينـا
يأبـى لنـا شـرف الإسـلام منقصـة
وان تكـن حـادثـات الدهـر تضنينا
إنـا لننصحكـم حقـا ونـرشـدكـم
نبغـي هـداكـم وللإصـلاح داعينـا
لا نبتغي مـا حيينـا منكم عوضا
وان نمت فإلـه الخلـق يجزينـا
جئتكـم مـن ربـوع القطـر صارخـة
لـو تسمعـون صراخـا للمنـادينـا
رد التحيـة فـرض لـو أقـوم بـه
أقضـي حقـوق بـلادي موفيـا دينـا
حيـي (الجزائـر) مـا قـامت بواجبهـا
وحيـي صاحبهـا مهمـا يحيينـا !
يحيى (سعيدا) ويحيى الشعب في سعة
يـزهـو بأبنـائـه غـراً ميامينـا !

قصيدته في محاولة اغتيال
(عبد الحميد بن باديس)

طالما تعرض علماء الإسلام وأئمته ـ للقتل والاغتيال والبلاء ، في كل عصر ومصر ، على أيدي الحكام الظالمين المستبدين ، ومن يدور في فلكهم من العملاء والمرتزقة والأدلاء

والكيد لعلماء الإسلام ومحاولة تصفياتهم ـ ـ جسديا ـ من التقاليد التي بثها الاستعمار في مجتمعاتنا التي ابتليت به ، واتبعها الكثير من المتمعين المستعلين لسذاجة شعوبهم المتلاة بهذا الاستعمار أو ذاك في كل مكان

والاستعمار الفرنسي وعملاؤه في الجزائر ـ سار على هذا النهج المتعفن من السياسة الحرقاء أمدا طويلا ، ذهب ضحيته كثير من العلماء ودعاة الإسلام ورجاله ، لما هم

من الجرأة والشجاعة في مجابهتهم بالكشف عن عيوبهم ومخازيهم .

في سنة 1926 وبالضبط يوم 14 ديسمبر من نفس السنة تعرض الإمام الشيخ عبد الحميد بن باديس لمحاولة اغتيال على يد (خوني) من اخوان الطريقة (العليوية) الضالة ، إثر خروجه من الجامع الأخضر بقسنطينة بعد درس التفسير ، وذهابه راجلا إلى حيث مسكنه ، ولكن الله أمد الإمام بقوة من عنده فأمسك على يدي الجاني الذي ضربه بالعصا ، ثم استل سكينا للإجهاز عليه ، فكانت هذه الحادثة بمثابة إنذار من الاستعمار وأعوانه ، ولكن علماءنا الأحرار . راحوا يتحدونهم بكل وسائل التحدي ويفضحونهم ويكشفون عن مخططاتهم المخفرة فانكشفت سوءتهم أمام الأمة .

وكتب الأستاذ العقبي في جريدة الشهاب آنذاك : العدد (80) بتاريخ 20 جانفي 1927 مقالا مطولا تحت عنوان :

جمعية التآمر بقتل العلماء والفتك بهم ! !

أطريقة هي ، أم عصبة أوباش ولصوص ؟؟

أين الحكومة لتحفظ النظام العام ؟

ثم جاءت معه القصيدة التالية المنشوره في الشهاب العدد (83) بتاريخ 10 فيفري 1927 ، وفيها الصواعق على رأس الإستعمار وأعوانه

في ذمة التاريخ أفضع حادث !.
لشاعر السلفيين وخطيبهم العلامة الأستاذ الشيخ الطيب العقبي

عبد الحميد النصر قد وافاك
رغم المنافس والذي عاداك
واصلت سيرك مرشدا ومعلما
ولسوف تحمد بعدها مسراكا
إني رأيتك للزعامة أهلها
والكل للنظر السديد رآكا !!
ان كادت الأعداء يوما أو سطوا
فالله جل جلاله يرعاك
ما شوهوا لك سمعة كلا ! وان
قصدوا بذاك الحط من علياك

أو صرجوك بذلك الدم واعتدوا
فلقد أقاموا امة تهواكا !
هاجوا العواطف كلها فتحركت
فقلوبنا بالعطف لا تنساك
تمت لهم في جهدهم وصلاتهم
ولكل من في الحق قد ناواك
حطت دماؤك صفحة بيضاء شا
هدة بأنك حامد عقباك
ادموك يا رجل الثبات ! وقبلها
ادمى الشرار الرسل والنساكا !
هي حلة الشرف الرفيع لبستها
حمراء صافية فجرّ رداك
وافخر وسر نحو العلا متقدما
تطأ المعاند دائما نعلاك
اسست خير جريدة تدعو إلى
دين الهدى وتحارب الاشراك
فاستصرخوا ودعوا شورا ، ويلهم
والكل بالأفك المبين رماكا
د تنتقد طرق الضلال فلم تكن
في النقد كذابا ولا أفاك

أو تحتقر تلك الجموع فكلهم
أهل - ورب العالمين - لذاكا !
هذا هو العمل العظيم مثوبة
واجل ما قدمته يداكا
يا ويحهم ماذا جنوا بصنيعهم
لو يعقلون تطلعوا لرضاكا
لم يغضبوك بسطوهم بل أغضبوا
رب السماوات العلا وأباك
هي غضبة عربية مصرية
حلت عرى خطب امض قواك
هي نقمة في زعمهم لكنها
جاءت بأعظم نعمة تغشاك
لم يفلحوا في كيدهم إذ قارفوا
دما وصدوا في الطريق شاكا
يتربصون بك الدوائر حيث لا
يبقون بالخطر العظيم سواكا
نصبوا لك الارصاد في غسق الدجى
يرجون قتلك خلسة واداك
من بعد ماائتمروا على الأمر الذي
لو تم مس العرش والأملاكا !

وتقدمت كف الأثيم بضربة
قد زلزلت من وقعها الأفلاكا !
وقعت على رأس العلوم وربها
والرأس أثبت ما يكون هناكا
وسطا بأخرى دون تلك فصادفت
ما تحت هدب العين من يسراكا
واستل موسى للشقاء أحدها
فكفيتها والله قد أنجاكا
وأخذته أخذ العزيز ولم تخر
منك العزيمة عندها حاشاكا !
لا حول عندك لا ولا لك قوة
لكن رب الناس قد قواكا !
غالبته فغلبته صعداً إلى
حيث استجاب السامعون نداكا
فتفلت الجاني وولى مسرعا
متقصدا دارا بها سكناكا
يبغي القضاء عليك ثاني مرة
فحماك ربك ثانيا ووقاكا
وتخافت الأقوام في خلواتهم
أن سوف لا تحيى وقد أحياكا ..

ودوا لو انتصروا فلما يفلحوا
بل أصبحوا صرعى بسيف هداك
فتحقق الوعد الصريح بنصر من
نصر الإله وجل ما أعطاك
تبت يدا العلج (العليوي) الذي
للفتك عن بعد الديار أتاكا
ما كان يخطر أن ينالك معتد
لكن بذاك الشر قد فاجاك
حفت جموع الناس تنظر ما جرى
وجميعهم بالروح قد فداك
ما كان أعظم هوله من حادث
ركى نفوسهم كما زكاكا !!
كادوا به يسطون لو مكنتهم
من قتله لسطوا به . لولاكا
لله موقفك العجيب بهم
عن قتل من للقتل قد وافاكا
علمتهم كيف التحمل للأذى
فتعلموا درسا على بلواكا
ذهبوا به رفقا لدار حكومة
والكل يحمي في الطريق حماك

طاف الجميع حيال شخصك وابتغوا
سبباً به يستعجلون شفاكا
ثم انثنوا بك راجعين وأنت كالـ
ـبدر المنير تمدهم بسناكا
لا تجزعن «عبد الحميد» لحادث
هز البلاد وحرك الأسلاكا !
لك أسوة بالهاشمي «محمد»
فاشكر لما رب الورى أولاكا
واصبر على ما قد أصابك واحتسب
عند الإله الأجر يوم لقاكا
فالله قال : «لتسلون» وأنت من
تدري حقيقتها ولا تخفاكا
في ذمة التاريخ أعظم حادث
قد سجلته . على المدى ذكراكا !

* * *

النثر

موضوع الامس واليوم ...

الرجال مواقف وأعمال ، ومواقف الرجال وأعمالهم هي وحدها الدليل ، وهي وحدها الحجة .

والله تعالى لا ينظر إلى صور الرجال وأشكالهم وأزيائهم وطقوسهم ولكنه ينظر – فقط – إلى قلوبهم وأعمالهم .

ومواقف علمائنا الأحرار ، مواقف تترسم خطى النبوة وهدي السلف الصالح من أئمة الإسلام . فهم لهذا موفقون مهتدون ، لا يجاملون في الحق ولا يمارون فيه ، ولكنهم قوم آمنوا بربهم واهتدوا بهدي نبيهم ، وباعوا دنياهم بآخرتهم فكانوا العظماء حقا والرواد صدقا ، دعوا إلى ربهم بالحكمة فلم يغالوا ولم يقصروا ، بل لازموا العدل والاعتدال حتى في معاملة خصومهم ومناوئيهم والمتربصين بهم ، الأمر الذي فرض احترامهم وتقديرهم ومحبتهم كعلماء أمناء نزهاء ، لا يخافون لومة لائم ولا سطوة ظالم .

وفي المقال التالي ، تتبين في وضوح ـ شخصية الأستاذ الشيخ الطيب العقبي ومواقفه العادلة المعتدلة في الدعوة إلى دين الله الحق ، وهو مقال تتبين منه أيضا كيف كانت الإدارة الفرنسية تكيد له ولإخوانه وتعمل على استدراجهم إلى المزالق لتقيم الحجة على العصف بهم ولكنهم كانوا ـ دائما ـ أذكى عقلا ، وأكثر حصافة من كل أساطين الاستعمار ، يفوتون عنهم كل الفرص ، ويقيمون الحجة عليهم في تهورهم واستهتارهم .

فلنقرأ المقال التالي بإمعان ، فهو منشور في صحيفة «السنة» العدد الأول بتاريخ 8 ذي الحجة 1351 هـ ـ 10 أفريل 1933 م فهو منقول منها بالحرف :

ـ الإسلام والتمدن العصري ـ

بقلم الأستاذ الطيب العقبي عضو جمعية العلماء المسلمين الجزائريين .

تعليق الصحيفة

هذا موضوع مسامرة ألقاها الأستاذ في قاعة نادي الترقي بالجزائر ليلة 27 رمضان الماضي ، 20 جانفي 1933 بطلب من إدارة (الراديو) واقتراح الموضوع ، ولكن يد السياسة أبت إلا أن تلعب دورها المزري أثناء المسامرة ،

وحرمت الكثير من المستمعين في الداخل والخارج من سماع ما كانت أعلنت لهم عنه تلك الإدارة في الجزائر واستعدوا له بكل تشوق وتلهف ، فإذا بهم يسمعون منها غيره (من القصة والقلائل) في الحين الذي كان من بها خاصة يسمع المسامرة (! !) وقد كان لهذه الحادثة أثرها السيء في النفوس ، واعتذرت الإدارة بعد ذلك للمسامر ورجال النادي بما لم تطمئن النفوس لقبوله

المسامـــرة

افتتح المسامر كلامه في ملأ من المستمعين الذين وفدوا على النادي فغصّت بهم قاعته الفسيحة وكل غرفه وساحاته بقولـه :

والسلام عليكم أيها الحاضرون ، وعموا مساء أيها المستمعون . يقول الجاهلون بحقيقة الإسلام : ان تعاليمه لا تتفق مع روح العصر الحاضر : وباطل ما يقولون ، بل الحق الذي لا غبار عليه ولا مرية فيه لدى المنصف ، هو أن الإسلام دين كل تقدم ورقي يأمر بكل فضيلة وينهى عن كل رذيلة . أساسه المساواة بين بني البشر . وهيكله المشاد على ذلك الأساس إنما هو الرحمة والعدل . برهان ذلك قوله عز وجل : (يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا ان أكرمكم عند الله

أتقاكم) وقوله تعالى : (يا أيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منهما رجالا كثيرا ونساء واتقوا الله الذي تساءلون به والارحام ان الله كان عليكم رقيبا) و آيات كثيرة وأدلة غير قليلة

علم المسلمون السابقون الإسلام كما يجب أن يعلم ، وفهموه كما كان يفسر ويفهم . فاطمأنت اليه قلوبهم وارتاحت به ضمائرهم وساروا بتعاليمه السامية في ميدان الحضارة والمدنية ذلك الشوط البعيد .

وهل كانت تلك العصور الذهبية ، والآثار التي لا تزال تترجم عن تلك المدنية إلا ظاهرة إسلامية ومظهرا من مظاهر تلك التعاليم الجليلة ؟

ليس الإسلام بتعاليم جافة وعقائد تفرض على الناس فرضا وتلزم العقول اليها إلزاما كما ترغم النفوس على العمل بها إرغاما . ولكنه عقيدة هي وليدة الإيمان والعلم ، وعمل صالح لكل زمان ومكان ، هو نتيجة ذلك العلم وذلك الإيمـان .

ولولا ذلك لما لبث على ظهر الكرة الأرضية أربعة عشر قرنا واتباعه بما فيهم من علماء وفلاسفة حكماء يحصون بمآت الملايين .

وإذا وجد في الإسلام صور لعادات مخصوصه (معقولة الحكمة لعارفيه) فإن فيه أيضا ذلك التشريع وذلك

القانون الكفيل بمصالح بني البشر والمنبع الفياض بسعادتهم الروحية والجسدية معا ، وليس هو الدين الذي يحمي الروح فقط أو يحافظ على الجسم فقط ولكنه الدين الذي يحفظ جميع ما للإنسان كروح وجسد .

وليس هو الدين الذي يأمر أتباعه بالعمل والتزود للآخرة ويهمل أمر العمل لدار الدنيا فإن كتابه المقدس يقول : (وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا وأحسن كما أحسن الله إليك) ويقول في دعاء الذين لهم نصيب مما كسبوا : (ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة) كما يقول في الحض على العمل الشامل لهما معا (ليس للإنسان إلاّ ما سعى) ولا يهمل الجزاء حتى على قليل العمل لقوله تعالى : (فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره) ويجعل جزاء تلك الدار مترتبا على العمل في هذه الدار ، ويقرر بأن لكل نفس ما كسبت كما أن عليها ما اكتسبت .

بنيت أحكام هذا الدين على قواعد هي أعلى مثل للحكمة والهداية للبشر . فمن قواعده أن : (درء المفسدة مقدم على جلب المصلحة) ومنها : (لا ضرر ولا ضرار) ومن أوليات أصوله «نفي الحَرج في الدين» ومن قضاياه التي لا تتخلف : ان «الضرورات تبيح المحظورات» وان هذه الضرورات إنما تقدرها ، فإذا ارتفعت رجع الحكم إلى أصله . وقد روعي في كثير أحكامه العمل بقاعدة (سدّ

الدرائع) وكل أحكامه معقولة الحكمة محققة الفائدة والنفع وقد أعطى مثلة جليلة في التسامح وحرية الأديان بقوله : (لا إكراه في الدين) كما أطلق للعقل عقاله ومنحه حرية التفكير مع حثه على النظر والاعتبار واستعمره في ملكوت الله الأعلى وملكه المتسع الأرجاء بمثل قول القرآن : (إن في خلق السماوات والأرض واختلاف الليل والنهار والفلك التي تجري في البحر بما ينفع الناس وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها وبث فيها من كل دابة وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والأرض لآيات لقوم يعقلون) واستحثنا لاستثمار ما في الكون بقوله عز وجل (الله الذي سخر لكم البحر لتجري الفلك فيه بأمره ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون ، وسخر لكم ما في السماوات وما في الأرض جميعا منه ؛ ان في ذلك لآيات لقوم يتفكرون) .

وبهذا كانت نفوس معتنقيه مطمئنة وضمائرهم مرتاحة . وبه سعدوا كل السعادة إذ ليس من وراء راحة الضمير وصفاء الخاطر من غاية للسعادة ولا وسيلة لجلب السرور والراحـــة .

ومن عرف الإسلام بحقيقته ونظر إلى حال أمم الغرب المتقدمة اليوم في أعمالها وحرية تفكيرها مما نسميه (تمدنا وحضارة) حكم لأول وهلة بأن هذه الأمم هي إلى دين الإسلام العملي أقرب من أهله إليه ، وفي أخذها بوجوه هدايته في جلب المنافع ودرأ المضار في هذا العصر أسبق

من منتحليه ومعتنقيه ؛ إذ الإسلام دين علم لا دين بطالة وكسل ، يسير مع العقل والعلم جنبا لجنب في كل آن ومكان ، ويساير المدنية الصحيحة في كل أدوارها وأطوارها النافعة لبني الإنسان . ولم يعرف الإسلام بغير هذا لا في القديم ولا في الحديث ، ولكن قوما من المنتمين اليه أبوا إلا تشويه محاسنه بما هم فاعلون باسمه وناسبون اليه من أعمال وأقوال هو عنها بعيد ومنها بريء

ومما يؤسف له كل الأسف أن المسلمين اليوم (إلا قليلا منهم) بعدوا عن الإسلام ببعدهم عن العلم الموجب للإيمان الصحيح والعمل الصالح الذي هو من مقتضيات ذلك الإيمان ولوازمه .

وقد يهتدي المفكر الحكيم إلى أن الإسلام هو الدين الطبيعي للبشر . الصالح للتأليف بين أجناسهم وأممهم كيفما كان لونهم وجنسهم . وأنه هو الدين الوحيد الذي يساير أدوار الحياة ويسير مع كل مدنية ترتكز على قوتي العلم والحق .

ولا منقذ لهذه البشرية من كروبها التي تعانيها وكل آلامها وأتعابها إلا اهتداء بتعاليمه والسير على نورها المستبين وأن لكل ما نشاهده من آثار تمدن العصر النافعة ـ صلة قوية وعلاقة متينة يمت بها إلى تعاليم القرآن ودين الإسلام . وكل ما تشتكي منه الإنسانية المعذبة وتتألم له من هذا التمدن

العصري وقد تتحمله مكرهة وتتجرعه ولا تكاد تسيغه ، لو مما حذر الإسلام منه ، ونهى عنه .

وليس التمدن عندنا بتلك المظاهر البراقة والصور الرائعة الخلابة في حال ترتكب فيها الأفعال المخزية ، والأعمال المردية ، كلا ! ولكنه علم وعمل صالح في سعادة ، وبطمأنينة ، وأمن ، وسلام ، فمرحبا بكل تمدن نرى من نتائجه استتباب الأمن واستبحار العمران وتمهيد طرق المواصلات وسرعة السير إلى الأمام . واستثمار ما أودع الله في الكون من خيرات وكنوز . ومرحبا بالتمدن الذي يحفظ مصالح بني البشر المشتركة مرحبا . ومتى كان قوام هذا التمدن العصري وروحه الحقيقي إنما هو العلم النافع فمرحبا به ألف مرة ومرة ومرحى لأنصاره ومؤازريه ، وان دين الإسلام ليوجب تطلبه على اتباعه وشد الرحلة (ولو إلى بلاد الصين) للحصول عليه .

وما وقف دين الإسلام في يوم من الأيام ولن يقف أبدا في طريق تمدن مبدؤه العلم ومنتهاه العمل الصالح وإسعاد بني آدم بما تصبو إليه قلوبهم وتتمناه نفوسهم في كل عصر وحين ، نعم نرى في تمدننا اليوم رغم حسناته الكثيرة مساوىء لا يحسن السكوت عليها ولا يسوغ للمتشبع بالعقلية الإسلامية قبولها والموافقة عليها بحال من الأحوال ، ذلك لما فيها من ضرر محقق وفساد للأخلاق تتبرأ منه وتتنزه عنه شرائع الأخلاق .

هذه كلمتي في الموضوع باختصار والشرح في تفصيل جملها ، ومدلول جملها يطول والفرصة المعطاة لنا من إدارة (الراديو) أو معجزة هذا التمدن العصري — ضيقة فإلى فرصة أخرى ، وإلى اللقاء أيها المستمعون ! والسلام عليكم أيها المؤمنون ورحمة الله وبركاته .

تعقيب الجريدة :

انتهت المسامرة بنصها وقد كان يتخللها الأستاذ المسامر بشرح بعض جملها وتبيين المراد منها والحمد لله الذي مكن نشرها وتعميم فائدتها والله متم نوره ولو كره الكارهون

ثم ألا يشعر بعد الإطلاع عليها أولئك الذين عملوا لحرمان الناس منها بمقدار جنايتهم على الدين والإنسانية ، وانتهاكهم لحرية العلم والأدب ؟ أو هل لا يرتدع أولئك القوالون المتخرصون على العقبي بما يمليه عليهم ، الحسد وتصوره لهم الضلالة والجهالة ؟ فها هو العقبي على حقيقته وها هي دعوته على جليتها قد تجليا في أوضح صورة وأصدقها في هذا الخطاب النفيس البليغ .

ولقد يكون من خير الناس وعظيم النفع لهم لو أن الأستاذ العقبي يسمعهم على موجات الراديو من مثل درر خطابه هذا حينا بعد حين ، ولو أن الأمة كان لها من يعتني بتربيتها وتثقيفها لكان يبذل ويسعى لنشر مثل هذا الخطاب في كل مناسبة لا أن يستعمل سلطته في حبسه وحرمانه منه

وشركة الراديو ماذا أرادت ؟ الربح المادي لها ، برواج آلاتها عند المسلمين ؟ فإنه لا أحلب لذلك ولا أسرع به من أن تجعل في برنامج ما تذيعه خطابا من أحد علماء الأمة المشهورين كالأستاذ العقبي وأضرابه . وإذا كانت حدثت فيما مضى فلا نظنها تخدع بعدما نشر الخطاب وعرف منه ما يمكن أن يقوله العلماء المسلمون إذا وقفوا عندها في مركز الإذاعة ، أمَّا مادامت لا تذيع على المسلمين بلسانهم إلا الأغاني والطقاطيق فإنها تبقى محرومة من مشاركة السواد الأعظم منهم وغير ملتفت اليها من ناحيتهم بقدر عدم التفاتها للغتهم

وبعد .

فهذا هو كفاحنا ونضالنا بالأمس ، وهؤلاء هم علماؤنا وروادنا بالأمس ، فماذا بعد الحق إلا الضلال ؟

هيا انظروا أوّليكم كيف قد سلفوا
ثم اسلكوا في المعالي أية سلكوا ! !

* * *

يقولون ـ وأقول ! ! (1)

يقولون أن الحكومة تنظر اليك نظر العدو الكاشح لأنك حثت من أرض الحجاز .. وأقول لهم : ان حكومة فرنسا قد علمت مما أخذته من أوراقي يوم 4 ستمبر 1921 حين تفتيشها لي بسبب وشايات مدرسكم وأعوانه الظلمة الذين شاركوه في أكل أموالنا ـ حقيقة أمري وأظنها عرفتني منذ ذلك الحين أكثر مما عرفني كل واحد غيرها ولها كلما نسيت أن تراجع أوراقي فإنها لا تزال تحت يدها إلى يومنا هذا بالرغم من طلبي لها مرارا لما بها من القضايا التي تخصني أو المسائل العلمية . فهل تتركون هذه الخدمة : خدمة الجوسسة لأربابها الذين عينتهم الحكومة لها وآنست منهم المقدرة عليها وهم بها قائمون ، وترجعون إلى زواياكم للعبادة فإنكم سالكون ومسلكون ؟؟ .

---

(1) جريدة الشهاب ، العدد 7 بتاريخ 24 ديسمبر 1925

وهل بعد هذا كله تعاودون الوشاية أم أنتم عن هذه الأقوال الباطلة منتهون ؟ ويقولون بعد هذا كله : إني في فاتحة العدد الثالث من جريدة «الجزائر» مدحت فرنسا بما لا تجوزه الشريعة الإسلامية ، فهم لهذا يحكمون علي بأني من المنمقين المنافقين ! !

وأقول لهم : أنا إذا مدحت فإنما أمدح فرنسا الحرة صاحبة مبدأ العدالة والمساواة ، ناشرة لواء العلم ـ بالنسبة لمن سواها من دول أوروبا المتمدنين ـ وإني في مدحي لها أذكر حقائق تاريخية لا أقصد بها مس شرف الإسلام ولا أريد بها حضرة المسلمين . ولو تأملوا قليلا لعرفوا الحقيقة فهل هم من المتأملين ؟

يقولون : إني بمجرد رجوعي إلى هذه البلاد وخروجي من بلاد الحجاز كفرت ، وبذلك أفتاهم كبيرهم وشيخهم الأعمى مدرس بلد تهم ، وبهذه الفتوى جوز أكل أموال المجاورين الذين كانوا في الحجاز ورجعوا إلى هنا ، وكان هو السابق إلى أكل أموالهم قبل أن يعمل أحد بفتواه ! !

وأقول : إني بحمد الله لست كافرا بل أنا مسلم أسأل الله أن يحييني على دينه الإسلامي ولو كان كل من يخرج من الحجاز كافرا لكان فاتح بلادكم من مشمولات هذا الحكم ، مع أنه ـ رضي الله عنه وأرضاه ـ قد خرج لغرض صحيح ولولاه ما عرفتم الإسلام ولا فهمتم له معنى ...

ثم إذا كان من يرجع إليكم يكون كافرا فكيف تكونون أنتم وبماذا تحكمون على أنفسكم يا ترى ؟

أما مفتيكم فقد علمتم مقصده ، وما فتواه هذه إلا محاولة لتحليل ما أكله من عشرات الآلاف من أموالنا بالباطل . فهو الكافر بما استحل . والجاني على نفسه وعليكم . ما دمتم له تتبعون وبأفعاله تقتدون .

يقـولـون ـ واقـول ! ! [1]

يقولون : «لا إله إلا الله وحده لا شريك له» ، «إنا لله وإنا إليه راجعون» ، «لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم» ، «الله أكبر» ، «والله أحد ، الله الصمد» «إياك نعبد ، وإياك نستعين» وغير هذا من كل الألفاظ التي أودع الله لنا فيها سر التوحيد وافراده بالعبادة دون غيره . وهي عقيدة كل المسلمين الموحدين . ولكن ويا للأسف نجد الكثير ممن ينطق بهذه الجمل العالية والكلم الطيب الذي كان من واجبهم أن لا يعملوا إلا بمقتضاه وأن لا يخالفوه «بالفعل» إلى ما سواه : نجدهم يدعون غير الله . لما لا يدعى له إلا الله ، ويلجأون خاشعين ضارعين إلى سواه ، ويصمدون لمن لا يستطيع كشف الضر عنهم ولا تحويلا ، ويستغيثون بالأموات وحتى الجمادات والأشجار والنبات والكهوف

---

(1) جريدة الشهاب ، العدد 235 بتاريخ 16 فيفري 1927

والمغارات ... وقد ينسبون الحول والطول والضر والنفع والإعطاء والمنع لهذه الأشياء أو لأشياخهم أو للجن فيعظمون ويكبرون غير الله حتى أنهم يحلفون بذلك الغير هيبة له وخوفا منه ويقولون بعد هذا كله انا مسلمون إنا مؤمنون - اعتمادا على تلك الألفاظ التي هم بها ينطقون . وإن كانوا بالفعل والقول لمعناها ومقتضياتها يخالفون . وعنها يبتعدون . ولمن خالفهم في صنعهم يبهتون . وأقول لهم (بكل تؤدة وسكون) . ان كانت عقائدكم وأفعالكم تطابق ما جاء به محمد (صلى الله عليه وسلم) ونطق به القرآن ويفهمه كل عربي من تلك الألفاظ الكريمة والجمل التي أنتم بها تنطقون . فإنكم بلا شك ولا ريب مسلمون فطابقوا بين ما تنطقون به من كل ألفاظ التوحيد واخلاص العبادة ، وبين ما تعملون وتفعلون لعلكم إلى الحق والحكم الصحيح تهتدون ! ! .

الشكـــاوي والظـلامـــات

عـراقيـل الإصــلاح ..
جـرائـد الجزائـر لا تطبـع بتونس .. (*)

عقدنا النية وعزمنا كل العزم على إبراز جريدة «الإصلاح» يوم المولد النبوي 12 ربيع الأول من هذه السنة وقد راعينا في هذه المناسبة كون الجريدة دينية قبل كل شيء . فأعددنا المعدات وهيئنا كل أسباب الإسراع بالجريدة وإرسالها إلى القراء في هذا التاريخ وكنا فاوضنا «المطبعة التونسية» في طبع الجريدة بها وتم الاتفاق معها فأرسلنا اليها مواد الجريدة وأجرة الطبع فشرعت هذه في تصفيف الحروف وتقديم الجريدة للطبع وبينما نحن نرقب

(*) جريدة الشهاب ، العدد 114 بتاريخ 22 سبتمبر 1927

وصول الجريدة الينا إذا بتلغراف من وكيلنا بتونس يقول فيه . لا يمكن طبع الجريدة بوجه من الوجوه ما لم ترسلوا رخصة خصوصية (غير الرخصة الأولى) ينص فيها وكيل الدولة على طبع الجريدة في (المطبعة التونسية) ويذكر عنوان هذه المطبعة في نفس الرخصة لأن محافظة تونس منعت إتمام طبع الجريدة بدون هذه الرخصة . ولم تكتف برخصة الامتياز وورقة الإذن في صدور الجريدة التي كنا أرسلناها إلى مدير المطبعة حسبما تقضي به القوانين هناك . وبالرغم عن مخالفة هذا الطلب لما ينص عليه قانون الصحافة هنا وعن كوننا كنا ضمنا طلبنا من وكيل الدولة الإذن لنا بإصدار الجريدة ـ عنوان المطبعة التي سيكون بها الطبع وهي (هذه المطبعة نفسها) وبالرغم من تقيدنا نحن بها وعدم استطاعتنا الطبع في مطبعة أخرى إلا بإخبار آخر منا للحكومة .

وبالرغم عن هذا كله سافرنا إلى باتنة لمراجعة السيد وكيل الدولة بها وبعد لأي ومراجعة طويلة تنازل السيد وكيل الدولة لإعطائنا رخصة ثانية بتاريخ 7 سبتمبر ذكر فيه اسم المطبعة وعنوانها فجاءت مطابقة لما طلبه منا صاحب تلك المطبعة وحكومة تونس المتشددة . وكنا أخبرنا مدير المطبعة بما وقع فبادر الطبع ولكن فاجأنا تلغراف ثان يخبر بأن إدارة المحافظة منعت من إتمام الطبع قبل يوم الاثنين ما لم تتصل بالرخصة الجديدة الخصوصية حيث أنها لم تكتف بالرخصة الأولى القانونية ..

فلما وصلت الرخصة الجديدة إلى مدير المطبعة وعرضها على المحافظة يوم السبت أبت عليه هذه الطبع قبل يوم الاثنين لحكمة لم نهتد حتى الساعة إلى معرفتها .

ولما آذنته بعد ذلك بالطبع وطبعت الجريدة تماما أصدرت المحافظة أمرا ثانيا بمنع سفرها إلى حيث تعرض على أنظار الحكومة وحيث تنشر وتوزع بالجزائر ! ..

وأمرت بأن لا يطبع هذا العدد من الجريدة . فخبرنا وكيلنا تلغرافيا بهذا النبأ المفزع المزعج .. وكم كان وقعه علينا شديدا وأليما لعدم معرفة السبب ؟ ... واليوم وافانا جواب من وكيلنا الشرعي ونائبنا بتونس يشرح لنا فيه القضية بما نصه : «نعلمكم أن المحافظة منعت طبع جريدة «الإصلاح» بتونس ولما تباحثنا معها في هذا الشأن أعلمتنا (أنا ومدير المطبعة) أن مدير المحافظة ذهب إلى السفارة العامة للبحث في هذا الشأن وهذه منعته بدعوى جريدة جزائرية ، ووعدته بمخاطبة حكومة الجزائر وسؤالها عن وجود مطابع عربية بالجزائر وسبب الترخيص «لوادي ميزاب» «والبرق» وقال المكلف أنه بعد إجراء هذا البحث فإن وجدوا أن لا مانع من طبع جرائد جزائرية فإنهم يرخصون وإلا فإنهم يمنعون حتى (البرق) و (وادي ميزاب) وبعد كل ذلك قال : ان السفارة تعجب من طبع جرائد جزائرية بتونس ! وبعد الاحتجاج والإلحاح وإعلامه أننا طبعنا الجريدة ولا يرضى أحد بإتلاف الأموال والأتعاب بدون نتيجة ،

قلت : على كل حال (مخاطبا صاحب المطبعة) أترك الجريدة عندك في (الديبو) وأنتظر نحو شهر حتى تجيب حكومة الجزائر السفارة ، وهذه تجيبنا ونحن نجيبك . واليوم بحول الله – سحرر احتجاجا على منع طبع جريدة «الإصلاح» بتونس في وقت قمنا بجميع الواجبات القانونية ونعلمكم بالنتيجة بحول الله ، والسلام من أخيكم ونائبكم : مصطفى بن شعبان ، هذا نص الجواب الوارد الينا نقلناه بالحرف الواحد أما نحن فقد دهشنا لمنع الجريدة من الطبع أولا ولذكر أسباب كهذه ثانيا ، ولم نفهم ولن نفهم أبدا معنى مراجعة حكومة الجزائر في جواز طبع جرائد هذه البلاد بتونس ، والحال أن كل جريدة من هذه الجرائد تحمل رخصة خاصة بها من جهة يعلم حكامها جواز الاتجار والطبع في كل بلدة لأي كان ، ومادام بيد كل أصحاب هذه الجرائد رخصة خصوصية بجواز طبع الجريدة بتونس ، فما معنى هذه المراجعة ؟ وهل هي غير عرقلة لرواج «الإصلاح» في يومها وتاريخها المعين لكثير من قرائها ؟ .

(وادي ميزاب) رخصتها من عاصمة الجزائر نفسها و (البرق) رخصتها من قسنطينة حيث صدورها ، ورخصة جريدتنا الأولى والثانية صادرة من (باتنة) فهل كل هؤلاء الحكام بهذه الجهات الثلاث غير معمول برخصهم وغير منظور لأوامرهم المعطاة لنا وهل هم لا يعلمون القانون ؟؟؟ أمر غريب في بابه وعجيب ! ...

وقع ما وقع وانتظرنا الجريدة فلم تصل فعلا . ووافت نشرة مهده لأسباب فلم نطق السكوت عنها . وكثر سؤال الناس عن «الإصلاح» . لهذا كنا بادرنا بتقديم شكوانا الطويلة العريضة إلى الكل من حكومة تونس وحكومة الجزائرية . ولكي نسرع بالشكوى عسى أن لا تتأخر الجريدة عن وقتها بكثير – أرسلناها تلغرافيا هذا ما وقع بالإجمال قدمناه كعذر بين يدي «الإصلاح» لقرائه عساهم يقبلون منا هذه المعذرة التي اضطررنا لتقديمها لهم . ويعلم الله أننا لم نأل جهدا ولم نقصر وقد ذللنا كل العقبات التي اعترضتنا وتكلفنا تحمل كل المشاق ولم يبق أمامنا إلا هذه العقبة الكئود التي لا قبل لنا بتذليلها إلا أن شاء الله . فتتبارى حكومة تونس وتأذن في مساواة جريدة «الإصلاح» بغيرها وإبقاء باب حرية الاتجار والطبع مفتوحا أمام المطابع التونسية والجرائد الجزائرية . أما نحن فلولا قلة المطابع هنا وعدم وجود القدر الكافي منها لطبع الجرائد العربية . لما كنا تحملنا كل هذه المشاق لطبع جريدتنا (مؤقتا) بتونس . وسنوافي القراء بما يتم في المسألة . أو نرسل اليهم بنفس «الإصلاح» إذا أطلق سراحه ولم يتمادوا على وأده وقته حيث ولد صبي

مدير جريدة «الإصلاح» ببسكرة (الطيب العقبي)

وبعــد .

فهذه هي الظروف التي عاشها الشيخ الطيب العقبي في وطنه ، وهي الظروف التي لازمته عيشة شديدة وهو

لا يألو في مقاومتها بضراوة وقوة إيمان إلى أن أسلم روحه لربه في سنة 1960 ، وأمته حينذاك تخوض معركتها الحاسمة في ثورتها المظفرة .

والأمة التي تحرص على أمجاد ماضيها ، تنشر مفاخرها وتكرم في حالها أعلام ماضيها - هي التي تبني على أصالتها العريقة في النضال والكفاح - مستقبلها الأمجد والأكمل والأسلم . وإلى الله تصير كل الأمور .

«فأما من أعطى واتقى وصدق بالحسنى ، فسنيسره لليسرى ، وأما من بخل واستغنى وكذب بالحسنى ، فسنيسره للعسرى ، وما يغني عنه ماله إذا تردى إن علينا للهدى ، وإن لنا للآخرة والأولى» (سورة الليل) .

* * *

المحتوى

رقم الإيداع : 2007-434
ردمك : 978-9947-24-105-9

سحب الطباعة الشعبية للجيش



ISBN : ISBN : 978-9947-24-105-9